

قسم اللغة العربية - السنة الرابعة

مقرر: الآداب العالمية
(الفصل الأول)

الأستاذ الدكتور

رياض العوادة

Damascus University

الملاحح الأساسية للأأب الإأغريقى

١- العلاقة بين الأأب والفلسفة:

قد تبدو العلاقة بين الأأب والفلسفة فى التراث العربى القديم غير متينة ولا مطردة، وهى تتفاوت تفاوتاً شديداً بين شاعر كالمعري (٩٧٣-١٠٥٧م) حمل أشعاره عبء التعبير المباشر عن نظرائه الفلسفية فى الكون والإنسان، وبين شاعر كالمتنبى (٩١٦-٩٦٦م) رصع قصائده بحكمٍ متفرقةٍ، منها نتائج أفكاره، ومنها ما كان ترجمة للحكم اليونانية المعروفة لدى العرب فى عصره.

أما فى الأأب الأوروبى فالعلاقة بين الفكر النظرى والأأب ضاربة الجذور فى التاريخ، فوراء المدرسة الكلاسيكية تكمن فلسفة أرسطو، ووراء الفلسفة الرومانسية نجد فلسفة جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨)، التى تتضمن تمجيد الفرد والعاطفة، ووراء الواقعية الاشتراكية كانت أفكار ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وإنجلس (١٨٢٠-١٨٩٥) وبلخانوف (١٨٥٦-١٩١٨) ولينين (١٨٧٠-١٩٢٤). مرَّ الأأب الأوروبى بعدة مراحل، وكلها تشير إلى العلاقة الوثيقة بين الأأب والفلسفة.

١- الأأب اليونانى وهو أأب وثنى (٩٠٠ ق.م - ١٤٦ ق.م)

٢- الأأب الرومانى وهو أأب وثنى ١٤٦ ق.م وبعد ذلك أصبح مسيحياً، استقر لعام ٥٠٠م.

٣- أدب القرون الوسطى، الأدب المؤمن المسيحي (٥٠٠-١٥٠٠م).

٤- أدب عصر النهضة، حيث سيطر العقل (١٥٠٠-١٧٠٠م).

٥- المدرسة الكلاسيكية، فلسفة أرسطو ونظرية المحاكاة، القرن السابع عشر والثامن عشر.

٦- المدرسة الرومانسية، فلسفة جان جاك روسو وتمجيد الفرد، بداية القرن التاسع عشر.

٧- المدرسة الواقعية النقدية، تصوير الظواهر الاجتماعية تصويراً واقعياً، القرن التاسع عشر.

٨- الواقعية الاشتراكية، فلسفة ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وإنجلس، وبلخانوف (١٨٥٦-١٩١٨)، ولينين (١٨٧٠-١٩٢٤)، القرن العشرين.

وما دمنّا نتحدث عن علاقة الأدب بالفلسفة فلا بأس من أن نلقي ضوءاً على أهم أفكار فلاسفة الإغريق الأربعة وهم:

١- سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) عاش ٧٠ عاماً.

٢- أفلاطون (٤٢٨-٣٤٧ ق.م) عاش ٨١ عاماً.

٣- أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) عاش ٦٢ عاماً.

٤- أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق.م) عاش ٧١ عاماً.

يُعد اليونان أساتذة أوربا في الفلسفة وكذلك في الأدب ولقد ازدهرت الحضارة اليونانية القديمة ابتداء من منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث بدأ اليونان يتساءلون عن طبيعة الكون وعناصره وظهر السفسطائيون، الذين طالبوا الناس بالبحث عن المنفعة الفردية، وبعد ذلك ظهر على أرض اليونان العظيمة فلاسفة عمالقة منهم:

١- سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م): عاش في الفترة نفسها التي عاش فيها

المسرحي سوفوكليس (٤٩٦ ق.م-٤٠٦ ق.م) الذي ألف مسرحية (أوديب

ملكاً) ومسرحية (انتيجونا)، بشر سقراط بفلسفته في شوارع أثينا وحواليتها وساحلتها، نادى بالقيم الإنسانية وشعاره (اعرف نفسك بنفسك)، وكسب إعجاب الناس ومحبتهم، مما أشعر السلطة بخطورة أفكاره، فقدم إلى المحكمة وحكم عليه بالموت، لم يكتب شيئاً، ولكن تلاميذه تناقلوا أفكاره.

٢- أفلاطون: وبعد سقراط جاء أفلاطون (٤٢٨-٤٧٤ ق.م) الذي زار إيطاليا وصقلية وأنشأ مدرسة أطلق عليها اسم الأكاديمية، وكان يرى أن هناك حقيقة وهناك محسوسات وهناك محاكاة للمحسوسات، ويرى أن الفضيلة هي التوازن بين الشهوة والعقل والشجاعة، وأبعد الشعراء عن مدينته الفاضلة علماً بأنه كان ينظم الشعر.

٣- أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م): تتلمذ على يد أفلاطون مدة عشرين عاماً وبلغت الفلسفة اليونانية أوجها على يده، اتصل ببلاط فيليب المكدوني وعمل معلماً لابنه ألكسندر المكدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)، علماً بأن ألكسندر قتل ابن أخت أرسطو فيما بعد، وبعد موت ألكسندر عام ٣٢٣ ق.م هرب أرسطو من أثينا وقضى نفيه عام ٣٢٢ ق.م، وهو بالأصل ليس من أثينا وإنما من إحدى مدن اليونان.

يتألف العالم برأيه من أربعة عناصر:

- ١ - النار.
- ٢ - الهواء.
- ٣ - التراب.
- ٤ - الماء.

والنار هي أقدم هذه العناصر الأربعة.

له كتاب كبير وهام بعنوان «السياسات» وكتاب «المنطق» وكتاب «الأخلاق» وله كتاب مهم جداً بعنوان (فن الشعر) ويتحدث فيه عن الملحمة والمساة والكوميديا.

الكميديا برأى أرسطو، محاكاة الأدياء والرذيلة، في حين التراجيديا محاكاة للفضيلة والفعل النبيل الجليل الكامل. وتتفق الملحمة مع التراجيديا في كونها محاكاة للأخيل في كلام موزون، وتجري على طريقة السرد والفصص، وهي مخالفة لها في الطول، فالتراجيديا تحاول جاهدة أن تقع تحت نورة شمسية واحدة، أما الملحمة فهي غير محدودة في الزمان، ولا تعتمد التراجيديا على القصص، وتتضمن الرحمة والخوف لتحديث تظهيراً لمثل هذه الانفعالات. وتتألف التراجيديا من ستة أجزاء كما يقول أرسطو.

١- القصّة، ٢- الأخلاق، ٣- العبارة، ٤- الفكر، ٥- المنظر، ٦- الغناء، وتتضمن معظم التراجيديا هذه الأجزاء الستة، والقصّة نواة التراجيديا، وتليها الأخلاق، والتراجيديا برأى أرسطو، عمل تام أي لها بداية ووسط ونهاية، ويجب أن تكون طريقة السرد منطقية بحيث تكون معظم الحوادث نتيجة لحوادث سبقها.

إن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع وإنما رواية ما يجوز وقوعه. وما هو ممكن أن يقع، وهذا هو الفرق بين المؤرخ والشاعر، الأول يروي حوادث وقعت، والآخر يروي حوادث قد تقع. وبذلك يروي الشاعر الكليات في حين يروي المؤرخ الجزئيات، ويجب ألا يحور الشاعر على التسلسل الطبيعي للحوادث، ألا يمد القصّة أكثر مما تطيق، وتكون المحاكاة لأعمال تثير الخوف والشفقة، وأحسن ما يكون ذلك حيث تأتي هذه الأمور على غير توقع، وتكون مع ذلك مسببة بعضها بعضاً. ويركز أرسطو اهتمامه على عنصر التشويق في التراجيديا ويقول: «وإحسن ما يكون ذلك حين تأتي الأمور على غير توقع»^(١). إنها تنتقل من السعادة إلى الشقاء ويستفاد من عنصر المفاجأة والتعرف. ويثير الشاعر في نفس المشاهد شعور الشفقة أو الخوف، والتعرف مثلاً عرف أوديب أن الذي قُتل بيده كان أباه، وقد يكون التعرف قبل حدوث القتل، والأفضل أن نسمع عن القتل ولا يمثل على المسرح.

يحاكي الشاعر الطبيعة كما هي، أو أفضل مما هي، أو دون ما هي عليه، ويصورها كما يعرفها أو كما يعطن أنها أو يقال له أو من الممكن أن تكون. وي طرح أرسطو في كتابه «فن الشعر» السؤال التالي:

«وقد يسأل سائل: أي النوعين أفضل: المحاكاة الملحمية أو المحاكاة التراجيدية؟ فإذا كان أفضلها هو أبعدهما عن الابتذال، وأبعدهما عن الابتذال دائماً هو ما يتجه إلى نظارة أفاضل»^(١).

الملحمة الواحدة تصلح لعدة تراجيديات في حين أن التراجيديات لا يمكن أن تنقسم على ذاتها. مثال «الإلياذة» و«الأوديسة» لهوميروس الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد.

أخذ أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) المحاكاة عن أفلاطون (٤٢٨-٣٤٧ ق.م) الذي يعد الفن محاكاة للأشياء المحسوسة، فیرسم لها نسخة تحيى من مراتب الوجود في منزلة أدنى من الشيء المحسوس نفسه الذي عمد الفن إلى تصويره، فإذا عرفنا أن الأشياء المحسوسة بدورها لا تريد على كونها نسخات لأصول عقلية ثابتة، أدركنا كم يبعد الفنان بفنه عن الحقيقة.

يعتمد الشعر بصورة أساسية على المحاكاة مثله مثل الفنون جميعها. فإما أن يصور الشاعر الناس الطيبين أو الأشرار أو الناس العاديين. فهو ميروس يصور الناس خيراً مما هم عليه. ويرى أرسطو أن الفرق بين التراجيديات وبين الكوميديا: «فهذه تمثل أناساً أخس مما نعهدهم وتلك تمثل أناساً أفضل مما نعهدهم»^(٢) كما أننا نميز الأجناس الأدبية بطريقة المحاكاة، فقد تتم المحاكاة عن طريق القص أو السرد أو عن طريق التمثيل، حيث يصور الشاعر أشخاصاً في حالة الفعل والعمل والحدث ومن هنا أنت كلمة «دراما» التي تعني باليونانية الفعل أو الحدث، فتختلف المحاكاة إذن، بما يحاكي به، وما يحاكي، وطريقة المحاكاة.

ويبدو أن الشعر وليد الطبيعة الإنسانية، وإن المحاكاة أمر فطري موجود لدى الناس منذ الصغر، ويفترق الإنسان عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة، وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريقة المحاكاة، ويتلذذ الإنسان أو يتألم لرواية الأشياء المحكية. وبذلك فكل الناس يحاولون وليس الفلاسفة فقط، كل ما هناك أن الفلاسفة أكثر نصيباً من العلم بالنسبة للناس العاديين.

نشأت التراجيديات من فن المديح، والكوميديا من فن الهجاء. وزاد أسخيلوس عدد الممثلين إلى اثنين وأما سوفوكليس فزاد عدد الممثلين إلى ثلاثة، وقل كل منهما دور الحققة.

٤- أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق م): أنكر أبيقور وجود الأرواح الإلهية، وأمن مبدأ اللذة، يذكره شاعر الليل حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢) في قصيدة له بعنوان «تولستوي» نظمها عام ١٩١٠ بمناسبة وفاة الأديب الروسي المذكور، لأن أبيقور على عكس تولستوي يؤمن باللذة، ولا ينادي بالتضحية بالذات من أجل الآخرين، كما نادى تولستوي ١٨٢٨-١٩١٠ في معظم مؤلفاته التي بلغت تسعين مجلداً.

٢ - ألوان الأدب اليوناني:

وما أن نذكر الأدب اليوناني حتى تبرز إلى الأذهان ألوان ثلاثة ممتعة في الأدب:

- ١ - الأساطير.
- ٢ - الملاحم.
- ٣ - التمثيليات.

وللأدب اليوناني ميزات:

- ١- أدب إنساني، أي أنه أدب يهتم بالإنسان ويتعاطف معه.
- ٢- أدب ذو اتجاه نفسي، يحاول التعمق في النفس الإنسانية ومعرفة تقلباتها.
- ٣- خصب الخيال.
- ٤- متأسق الأجزاء، موضوع واحد، وترابط عضوي.

٣- الأساطير:

ظاهرة مشتركة لدى جميع الأمم في مراحل نموها الأولى وتطور الأساطير اليونانية حول عناصر ثلاثة:

- ١- الإنسان.
- ٢- الآلهة.
- ٣- الطبيعة.

مثال: أسطورة (الصدى والنجس)

كانت (إكو) واحدة من عرائس الجمال، وقد تماثلت في ثرائها ولجائها حتى أثارت غضب (ديانا) إلهة القمر أو إلهة الغفة، فسلبت منها القدرة على بدء لية جملة وتركت لها قدرة تكرر أو آخر الجمل التي ينطق بها المحدثون، وتتضاعف بلوى (إكو) إذ تقع في حبّ شاب جميل اسمه (نارسيس) ولم تستطع مغزله فتهدم على وجهها مرودة الأصوات التي تسمعها.

على أنّ المقادير لم تغف نارسيس من عقوبة صدوده عن (إكو) وتسوقه إلى غير صاف، فيرى وجهه الجميل فيقع في حبّ ذاته ويفرق ويموت وتبحث عنه عرائس الجمال فلم يجدن مكانه سوى زهرة (النجس). والنجسية حبّ الذات المرضي، أو الإسراف في حبّ النفس ولقد نسب العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) لأبي نواس (٧٦٢-٨١٣م) مرض النجسية^(١).

٤- الملاحم:

(الإلياذة) و(الأوديسة) اتخذتا شكلهما النهائي في القرن التاسع ق.م. (الإلياذة) وتتألف من حوالي ستة عشر ألف بيت، وبالتحديد من ١٥٥٣٧ بيتاً، وتقص جانباً من حكاية طروادة، اختلفت الإلهات الثلاث: هيرا- زوجة زفس، وإلهة الزواج، وأثينا إلهة الحكمة، وافيнос إلهة الجمال: أيهن أوفر جمالاً؟ وقرر كبير الآلهة جوبيتر أن يكون باريس بن بريام ملك طروادة حكماً بينهما،

فحكم لفينوس بتاج الجمال، فردت عليه جميله بان جعلت هيلانة زوجة مينيلوس ملك إسبارطة تقع في حبه وتهرب معه. إذ كانت تقوم بين طروادة وبين اليونان علاقات تجارية وفي إحدى المرات عندما زار باريس إسبارطة كان ملكها غائباً أقام باريس علاقة مع زوجة ملك إسبارطة الفاتنة هيلانة وهرب بها..... مما أثار ثائرة ملك إسبارطة وأهلها وأبطالها فهبوا لمحو العار، وعلى رأسهم أغاممنون، أخو الملك فاتجهوا إلى طروادة فتصدى لهم جيشها بقيادة هيكتور الأخ الأكبر لباريس.

تتدخل الآلهة في المعركة، فينوس لصالح باريس أما أثينا وهيرا لصالح اليونان. تُرجمت الإلياذة إلى أغلب لغات العالم، وأشار إليها ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) في مقدمته في باب: أشعار العرب وأهل الأمصار. ترجمها إلى العربية شعراً سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) في القاهرة عام ١٩٠٣، ولم يعرف العرب جنس الملحمة.

نظمها هوميروس، وكلمة هوميروس تعني الأعمى، ورأى بعض النقاد أنها تعني الرهينة لوقوع هوميروس في الأسر في أثناء إحدى الحروب، ولكن هيرودوتس أبا التاريخ يرى أن هوميروس لقب يعني كيف البصر، لأنه فقد بصره وهو في ريعان الشباب.

ولد هوميروس وحيداً لأمه ولأبيه في إزمير. وبعد ذلك وبصورة مبكرة فقد والديه، وفقد بصره في أثناء عودته من إسبانيا إلى اليونان، إذ أصيب بمرض الرمد، الذي اشتد إلى أن قضى على بصره نهائياً. عاش هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد. ووقعت حرب طروادة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي قبل ميلاد هوميروس بحوالي أربعة قرون.

«و الإلياذة» - نسبة إلى إليون عاصمة الطرواد، التي حاصر ها اليونان لمدة عشر سنوات، وتصور «الإلياذة» مدة ٥٦- يوماً من هذا الحصار في حين تقع حوادث الأوديسة في مدة أقل من مدة «الإلياذة». والأولى أكبر من الثانية وكل منهما يتألف من (٢٤) نشيداً وهو عدد الأحرف اليونانية.

حاربت المسيحية في البدء الإلياذة والأوديسة وبعد ذلك سمحت بهما وكذلك كان شأن الإسلام معهما.

موضوع الإلياذة واحد: كيد أخيل - أحد أبطال اليونان.

موضوع الأوديسة : رحلة أوديس.

أبطال الإلياذة من الجانب اليوناني:

١- ميثلادوس - ملك إسبارطة الذي هربت زوجته هيلانة مع باريس بن الملك بريام، ملك طروادة.

٢- أغاممنون - أخو الملك.

٣- أخيل - بطل اليونان. أصابه باريس بسهم قاتل في نهاية المعارك.

٤- نسطور - خطيب اليونان.

٥- أوديسيوس (بوليسيز) - بطل اليونان.

٦- فطرقل (باتروكلوس) - بطل اليونان قتل في اليوم الثامن والعشرين من بدء المعارك على يد هيكتور.

٧- إياس - أحد أبطال اليونان.

٨- هير - إلهة الزواج، تقف إلى جانب الإغريق.

٩- أثينا - إلهة الحكمة، تقف إلى جانب الإغريق.

من جانب الطرواد:

١- باريس بن الملك بريام، ملك طروادة.

وتقف إلى جانبه فينوس ربة الجمال، قتله ابن أخيل.

٢- هيكتور - آخر باريس قتله أخيل في اليوم الثاني والعشرين.

٣- بريام - والدهما. قتله ابن أخيل، وقتل باريس.

٤- يقف زفس - زوج الربة هيرا إلى جانب الطرود.

٥- كاسندرا بنت بريام.

٦- أندروماك زوجة هيكتور.

٧- إيباب - أم هيكتور.

حفظت الإلياذة مثلها مثل الأوديسة عن طريق الحفاظ العميان، وكان منهم في كل أمة حتى في الأمة للعربية والروسية وكذلك لدى اليونان. ولدى هوميروس مؤلفات أخرى لم تصلنا، كما لم تصلنا ملحم لغيره من الشعراء. وبدأ هوميروس الإتياد في أحد الحوائث بسبب الحاجة المادية، وهكذا شق طريقه. وكما قلنا تتألف «الإلياذة» من أربعة وعشرين نشيداً، وهذا ملخص للأنشيد:

النشيد الأول: خصام أخيل وأغاممنون

لما اكتسح الإغريق بلاد الطرود، عاثوا في مدنهم وسبوا نساءهم وحاصروا إليون عاصمتهم مدة عشر سنوات، وكان في جملة السبايا فتاتان فانتتان تدعى الأولى خريسا والأخرى بريسا، أجمع زعماء الجيش على تملك الأولى منهما لأغاممنون والثانية لأخيل.

وكانت الأولى بنت كاهن طلب إرجاع ابنته فرفض أغاممنون فاستغاث الكاهن الإله أفلون فأغاثه وضرب اليونان بوباء، فقال العراف لليونان: لوقف البواء يجب إعادة خريسا لأبيها.

ووافق أغاممنون على أن تعاد له سبية أخرى وهي بريسا، سبية أخيل. غضب أخيل لرأي أغاممنون وكاد يفك به لولا تدخل أثينا - إلهة الحكمة. وتوسط نسطور الحكيم بينهما فاعتزل أخيل القتال. مما أضعف الجانب اليوناني. تستغرق أحداث هذا النشيد - ٢٢ - يوماً.

وهكذا نرى أن النساء سبب الحرب، فهرب هيلانة مع باريس كان سبب بداية الحرب. وكانت السبية خريسا سبب البواء في الجيش اليوناني. كما كانت بريسا التي أخذها أغاممنون من أخيل سبب انقسام الجيش اليوناني وضعفه.

كانت السبية بريسا تفضل البقاء مع أخيل من الذهاب إلى أغاممنون لأنَّ الأول أكثر شباباً، ولأنها أحبته وكان أخيل يحبها حتى إنه بكى حين فقدها.

في أثناء الوباء قدم اليونان للآلهة الضحايا. وهو طقس معروف لدى أغلب الشعوب في تلك الفترة. وعرف العرب هذا الطقس.

النشيد الثاني:

ظل كبير الآلهة زفس طيلة ليله يفكر في التكتيل باليونان إعلاء لشان أخيل فعن له إرسال طيف مموه يحث أغاممنون على القتال بغية الفشل ومن ثم استعطاف أخيل، ففكر أغاممنون بالقتال وأخيل بعيد عن ساحة المعركة.

ولكنه كان في شك من عزم جنوده. فلكي يتأكد من عزمهم طلب منهم العودة إلى الوطن ليرى رأيهم علماً بأنه نفسه يرغب في القتال. ووافق الجند على العودة إلى الوطن ولكن نسطور الحكيم والبطل أوديس رفضا وأعادا الجند إلى ساحة المعركة. وألقى نسطور الحكيم كلمة في مجلس الشورى لأنَّ الآلهة وعدتهم بالنصر. جرت أحداث النشيد المذكور في اليوم الثالث والعشرين.

النشيد الثالث:

تجري حوادثه في اليوم الثالث والعشرين ويتحدث عن مبارزة مينلاوس وباريس وكاد الأول ينتصر على الثاني. ولكنَّ المبارزة انتهت من دون أن يقتل أحدهما وتنتهي بالهدنة.

النشيد الرابع:

اجتمعت الآلهة ورأى زفس - كبير الآلهة عقد صلح وإنهاء الحرب ولكنَّ زواجه هيرا - إلهة الزواج رأت تهديم إليون عاصمة الطرواد فوافق زفس. ولذلك دفعت أثينا - إلهة الحكمة أحد الطرواديين بإطلاق سهمه على مينلاوس فجرحه وبدأت الحرب حتى كسا أديم الأرض تيار الدماء.

تجري الحوادث في اليوم الثالث والعشرين.

النشيد الخامس:

يصف معركة بين بطلين، وتجري أحداثه في اليوم ذاته.

النشيد السادس:

رأى هيكتور أن الملك باريس مع هيلانة فوبخه وودع زوجته أندروماك وطفله وهي زوجة مخلصة وذهب إلى ساحة المعركة. تجري أحداث النشيد في اليوم ذاته.

النشيد السابع:

تقع أحداثه في الأيام التالية: الثالث والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين والسادس والعشرين - تجري خلالها معركة وبعدها تعقد هدنة لدفن الموتى وحفر الخنادق.

النشيد الثامن:

المعركة الثانية تكون لصالح الطرواديين، ويطلب زفس مجلس الآلهة وطلب منهم ألا يتحرش أحد منهم لنجدة أي الفريقين إلا أن أثينا إلهة الحكمة طلبت الموافقة على تدخلها برأيها فقط. كما تدخلت هيرا لصالح الإغريق، يكاد نستطور الحكيم أن يهلك في هذه المعركة. تستغرق أحداث هذا النشيد اليوم السابع والعشرين.

النشيد التاسع:

وهنت عزائم اليونان، ولذلك حاولوا استرضاء آخيل وأرسلوا له الهدايا بموافقة أغاممنون لأنهم كادوا أن يرحلوا وينهوا الحصار. وخطب أوديسيوس - البطل وكذلك نستطور وطلبوا منه العودة ولكن من دون جدوى.

النشيد العاشر:

تجسس كل من الفريقين على بعضهما بعضاً وكان تجسس اليونان ناجحاً، في حين كان تجسس الطروا مخفياً، وردت فكرة إنهاء الحرب عن

طريق إرجاع هيلانة، ولكن باريس رفض الفكرة ووافق فقط على إرجاع أموالها وأمتعتها، والإبقاء عليها لأنه يحبها. تجري أحداثه في ليلة اليوم الثامن والعشرين. وكذلك أحداث النشيد التاسع.

النشيد الحادي عشر: المعركة الثالثة

لما بدت كوكبة الصباح سير زفس ربة «الفتنة» فهاج الجيشان للقتال. فشك أغاممنون للقتال واندفع بجيشه تحت رعاية أثينا وهيرا وجرح أغاممنون. وطلب فطرقل من أخيل الموافقة على المشاركة في القتال.

النشيد الثاني عشر: واقعة الخندق

حيث انتصر الطرواد ولجأ الإغريق إلى السفن.

النشيد الثالث عشر: المعركة الرابعة.

هجوم الطرواد على الإغريق.

النشيد الرابع عشر: مكر هيرا ببعثها زفس.

كان نسطور الحكيم يعني بالتمريض ورأى أغاممنون ضرورة الهزيمة فوبخه أوديس. نام زفس بين يدي هيرا التي تقف إلى جانب الإغريق في حين يقف زوجها إلى جانب الطرواد، وعندما نام زفس استطاع الإغريق جرح هيكتور وإبعاد الطرواد عن سفن الإغريق وملؤوا السهل من قتلاهم.

النشيد الخامس عشر:

الواقعة الخامسة وبسالة إياس. كاد الطرواد إحراز الانتصار وإحراق السفن لو لا بسالة البطل الإغريقي - إياس.

النشيد السادس عشر:

المعركة السادسة ومقتل فطرقل. دخل فطرقل على أخيل ووقف لديه ضارعا وبكى متوسلاً أن يسلمه سلاحه ليذهب لمقابلة الطرواد فأجابه أخيل إلى طلبه، على شريطة أن لا يتجاوز الحد، بل يصد الطرواد عن السفن

ولا يتقدم إلى ما وراء ذلك. وكان الطرود يحرزون النصر إثر النصر وأشعلوا النار بإحدى السفن. انتصر فطرقل وتجاوز الحدود فقتله هيكتور بعد أن جرده من سلاحه. تجري الحوادث في اليوم ذاته الذي جرت به حوادث الأثاسيد الحادي عشر والثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، والسادس عشر، أي في اليوم الثامن والعشرين.

النشيد السابع عشر:

المعركة حول جثة فطرقل وانتصار الطرود في هذه المعركة.

النشيد الثامن عشر:

هجم آخيل وحصل على جثة فطرقل.

النشيد التاسع عشر:

مصالحة أغاممنون وآخيل. اعترف أغاممنون بخطئه وتهبأ آخيل للقتال بعد أن رجعت له (بريسا) سبيته التي أخذها أغاممنون واعترف أغاممنون أمام الجميع أنه لم يمسه في أثناء إقامتها عنده، ورفض آخيل تناول الطعام إلا بعد الأخذ بثأر فطرقل صديقه. نطق أحد الجياد ونبا آخيل بمقتله القريب فلم يكثر.

النشيد العشرون: مجلس الآلهة

ارتأى زفس الموافقة على مشاركة الآلهة في المعركة فوقفت هيرا وأثينا إلى جانب الإغريق وفينوس إلى جانب الطرود. قتل آخيل الكثير من الطرود حتى قتل أخوا هيكتور وكاد يقتل هيكتور نفسه وجرت عربته على جثث الموتى.

النشيد الحادي والعشرون:

يحقق آخيل انتصاراته وتتدخل الآلهة. تجري أحداث الأثاسيد التاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين في اليوم الثلاثين.

النشيد الثاني والعشرون: مقتل هيكتور

شارك آخيل في المعركة بعد مقتل صديقه فطرقل الذي قتله هيكتور. هرب الطرود إلى داخل السور ما عدا هيكتور وطلب منه أبوه بريام العودة.

إلى داخل السور فرفض، كما طلبت منه أمه ذلك فرفض ولكنه هرب أمام أخيل ووقف زفس معه ولكن أثينا أبت إلا أن يدركه قدره وهو الموت. تبارز أخيل وهيكتور وطلب هيكتور عقد اتفاقية تمنع القاتل منهما بالتمثيل بجثة القتيل فرفض أخيل. قتل أخيل هيكتور ومثل بجثته ودار بها، ورأى الطرواد جثة هيكتور ولم يستطيعوا فعل أي شيء وبكت أمه وزوجته.

النشيد الثالث والعشرون: يحرقون جثة فطرقل

النشيد الرابع والعشرون:

يحصل بريام على جثة ابنه هيكتور ويحرقها، وبكت عليه عليه زوجته أندروماك وأمّه إياب والشعب الطروادي كله، وعقدت هدنة لمدة عشرة أيام.

الخاتمة:

لجأ الإغريق إلى خدعة لفتح إيون وهي بناء حصان خشبي، واختبأ عدد من الجنود الإغريق داخل الحصان الخشبي، يقوم الطرواد بادخال الحصان إلى داخل السور دون أن يعرفوا ما في داخله، وفي الليل يخرج الجند ويفتحون الأبواب، ومن جملة من كان في الحصان أوديسيوس (بوليسيز). وقتلوا الطرواد، ولم ينج منهم إلا نفر قليل. قتل أخيل بسهم باريث وحصل على سلاحه أوديس ونازعه عليه إياس، فلما لم يحصل على سلاح أخيل انتحر كيدا. غدرت بأغاممنون زوجته وعشيقها. رجع مينلاوس بزوجته هيلانة ومات، أما هيلانة فقد شنتها إحدى أرامل الأبطال، الذين هلكوا بحصار طروادة. أما أوديسيوس فقد بنيت حول حياته الأوديسة. عاش نسطور الحكيم بسلام أما بريام فقتله ابن أخيل. وقتل باريث. وكان أوفرهم حظا إيناس الذي تمكن من الفرار وأسس دولة عظيمة.

تعد فلسفة الشاعر هوميروس تقدمية بالنسبة لزمه. فدعا إلى معاملة الأسرى والنساء معاملة جيدة. وكان واسع الاطلاع بعلوم الجغرافيا والتاريخ والفلك والطب والسياسة والحرب. وهناك من يرى أن طروادة كانت غنية فطمع بها الإغريق وهاجموها بسبب ثرواتها.

هناك مجموعة من الشخصيات التي تستحق التوقف عندها منها شخصية كاسندرا ابنة بريام فاض قلبها بالأسى وهي ترى سفينة أخيها باريس تمضي بعيداً عن الوطن ورفعت ذراعيها إلى السماء وصاحت: «الويل للويل لطروادة العظمى ولنا جميعاً! إنني أرى إليون المقدسة تلتهمها السنة النيران، وأرى أبناء إليون وقد تساقطوا جثثاً مضرجة بالدماء وأرى الأغراب يسوقون نساء طروادة وبناتها عبيداً»^(٥).

٥- الأوديسة:

بعد تدمير طروادة رفض أوديسيوس (بوليسيز) العودة مع الجيش اليوناني، وفضل أن يشق طريقه بنفسه، فأخطأ السبيل في عرض البحر، وتقل من جزيرة لأخرى، في حين كانت زوجته (بينيلوب) وابنه (تلماكس) ينتظرانه على أحر من الجمر، يبحث تلماكس عن أبيه أكثر من عشر سنوات، وتنتظر بينيلوب زوجها.

يعاني أوديسيوس (بوليسيز) مع عروس البحر وتتدخل الآلهة لإنقاذه، ويكشف سر حصان طروادة، الذي بفضلله دخل اليونان المدينة. وتحدث الملحمة عن مغامرات أوديسيوس مع إله البحر (نبتون)، وابنه ذي العين الواحدة (سيكلوب) ومع الساحرة، ومنعته إحدى الإلهات مغادرة إحدى الجزر مدة سبع سنوات، وتحدث «الأوديسة» عن عودته إلى جزييرته متكرراً في زي شيخ منسول، ويدخل بيته متكرراً، وكان كلبه «أرجوس» أول من تعرف عليه، ويموت على قدميه، وتعد بينيلوب بالزواج ممن يستطيع أن يصيب الهدف بقوس لأودوسيوس كان عندها، فكان أوبسيوس هو الذي أصاب الهدف، ويتعرف أوبسيوس على والده لايرتس، ويخوض مجزرة دامية مع أعدائه، الذين تكرروا له. وتتدخل الإلهة أثينا، إلهة الحكمة لوقف سفك الدماء وإقرار السلام. تعد «الأوديسة» أقل شهرة وحجماً من «الإلياذة» وتقع مثلها مثل «الإلياذة» في أربعة وعشرين نشيداً وهو عدد الأحرف في اللغة اليونانية. وإذا كانت الإلياذة تتحدث عن الحروب فإن الأوديسة تتحدث

عن المغامرات. ولا سيما مغامرات أوديسيوس (بوليسيز) وتصور مطاردة بنيلوب لخطيبتها بحجة نسجها ثوباً لأبي زوجها، كانت تحيكة نهراً وتكتكه ليلاً لكي تتخلص من خطاياها وتنتظر زوجها، الذي ظن أقرباؤه أنه ضاع في عرض البحر ولن يعود.

يقول د. طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) عن «الأوديسة» لهوميروس في عام ١٩٢٣ في مقال له بعنوان «بينيلوب»:

«لست أدري أقرأت «الأوديسة» أم لم تقرأ، وأنا أسمح لنفسني بهذا الشك، لأنني أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليوناني سييء الحظ في مصر، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة إلى حيث لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة، نجهل الأدب اليوناني، لا أقول جهلاً تاماً، بل أقول جهلاً فاحشاً مخزياً، لا يليق بقوم يحبون الحياة أو يطعمون فيها... ومع ذلك فقد كانت الأوديسة والإلياذة، وما زلتا، وستظلان، دائماً ينبوع الحياة للأدب والفن: للشعر والنثر، والنحت والتصوير، والتمثيل والموسيقى... بليت القرون، ولم تبل «الإلياذة» و«الأوديسة» فبيت الأمة اليونانية، واختلفت العصور والظروف على أوروبا في العصر المتوسط، وفي العصر الحديث، وسقنى أمم، وتختلف عصور وظروف، وتظل آيات «الإلياذة» و«الأوديسة» جديدة، خالدة، محتقة بقوتها وبهائها، ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث»^(١).

٦ - المسرحية اليونانية:

تعود أسس المسرح إلى اليونان، الذي بدأ من الاحتفالات الدينية والأعياد، التي كانت تعتمد على التكرار والرقص والتهرج واستخدام جلود الحيوانات، وما أن أتى القرن الخامس ق.م حتى كانت المسرحية اليونانية قد قطعت شوطاً لا بأس به من التطور واتخذت اتجاهين رئيسيين «المأساة» و«الملهاة».

المأساة: أعلامها:

- ١- أسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق.م) يعد أبا المسرحية اليونانية.
- ٢- سوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ ق.م).
- ٣- يوربيديس (٤٨٠-٤٠٧ ق.م).

وتعالج الجانب الجدي من حياة الإنسان المأساوية، إمّا لأسباب خارجية خارقة وإمّا لأسباب داخلية ناجمة عن الإنسان نفسه، وتكتب بأسلوب رفيع وتنتهي بموت البطل في المسرحيات اليونانية الكلاسيكية، أمّا المسرحيات الحديثة فتكتفي بتعريض البطل للآلام.

يقوم بالأدوار ممثل واحد وجوقة. وهناك وحدات ثلاث: الزمان والمكان والموضوع. رفع أسخيلوس عدد الممثلين إلى اثنين وسوفوكليس إلى ثلاثة. والمواضيع التي تعرضها المسرحيات اليونانية معروفة مثل «لوديب ملكاً».

٧ - أسخيلوس:

ولد عام (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) عاش ٦٩ سنة في أسرة أرستقراطية، ورفض استلام المناصب الحكومية وكرس حياته للشعر، تبارى مع سوفوكليس الشاب (٤٩٦-٤٠٦ ق.م) وفاز الأخير بالجائزة. شارك أسخيلوس في الحرب ضد الفرس، أنجب ولدين وكلاهما شاعر، ويرى النقاد أنّ أسخيلوس كان عزيز النفس، سامي الروح، ذا عقيدة دينية عميقة، ألف قرابة سبعين مأساة، ولم يصلنا منها إلا سبع مأس. منها: ١- «الفرس»، ٢- «السبعة ضد طيبة»، ٣- «بروميثيوس مقيداً»، ٤- «أغاممنون».

٨ - مأساة «الفرس»:

تدور أحداث المسرحية حول الأحداث التاريخية التي دارت بين الفرس والإغريق وانتصر فيها الإغريق على الفرس في معركة سلامين عام ٤٨٠ ق.م وعرضت المأساة المذكورة على خشبة المسرح عام ٤٧٢ ق.م، ولقد شارك أسخيلوس نفسه في المعركة البحرية المذكورة. تبدأ المأساة بمشهد يمثل جوقة من نبلاء شيوخ الفرس وعظمائهم، وهم ينتظرون على أحر من الجمر وصول أنباء الجيش الفارسي، وإذ برسول يبلغهم تفاصيل هزيمة الجيش الفارسي، والفكرة التي أراد أسخيلوس أن يبثها في مأساته هي أنّ التواضع كان سبباً في انتصار الإغريق وكان الظلم والطغيان سبباً في هزيمة الفرس.

٩ - مأساة «السبعة ضد طيبة»:

عرضت على خشبة المسرح عام ٤٦٧ ق.م. وتصور المأساة المذكورة الصراع الذي نشب بين الأخوين أنتيوكليس وبولينيكيس على عرش طيبة بعد أن تخلى عنه أبوهما أوديب، ولقد أدى الصراع إلى مقتل كل من الأخوين بيد الآخر. والسبعة هم حلفاء بولينيكيس الذي يهاجم طيبة، ويبرز لهم سبعة آخرون من أهل طيبة من أنصار أنتيوكليس. وتبدأ أحداث المأساة في مدينة أرجوس، ولدى ملكها انتان، وكان الملك قلقاً على مستقبلهما إذ جاءت نبوءة أن إحداهما ستزوج أسداً والثانية ستزوج خنزيراً برياً. فعزم الملك على أن يزوج ابنتيه بأقصى سرعة ممكنة قبل أن تتحقق النبوءة.

وفي إحدى الليالي المظلمة وصل إلى مدينة أرجوس بولينيكيس بعد أن طرده أنتيوكليس، ومعه مجموعة من أنصاره وكذلك وصل فريق آخر من مدينة أخرى وبسبب شدة الظلام، لم يتبين أحدهما الآخر، فتقاتلا لأن كل فريق يظن أن الفريق الآخر عدو له.

وفك ملك مدينة أرجوس الصراع، ورأى على درع بولينيكيس صورة أسد، وعلى درع خصمه صورة خنزير بري. فعرف الملك أن هذين اللاجئين هما اللذان سيتزوجان ابنتيه، وفي اليوم التالي زوجهما ابنتيه. وأعد الملك جيشاً لمساعدة بولينيكيس في استعادة عرش طيبة، وعلى رأس الجيش سبعة أبطال، ولكن الجيش عندما اقترب من طيبة وجد منابع مياهها جافة، ولم يجدوا ماء يطفئون به ظمأ الحملة الشديد ولكن امرأة ومعها طفل دلتهم على منبع ماء، وما إن عادت حتى وجدت الطفل قد اختفى، فقد التهمه ثعبان ضخم مخيف، فصاح العراف في غضب: «هذه نبوءة عن خاتمة هذه الحملة».

واستعد في طيبة أنتيوكليس وخاله كريون للدفاع عن المدينة المحاصرة وجرت معارك عدة دون أن يحسم الأمر لصالح أحد الجيشين، فلذلك دعا أنتيوكليس أخاه بولينيكيس للمبارزة التي انتهت بمقتل كل منهما على يد الآخر.

وفاجأ أهل طيبة الجيش المهاجم وفرقوه وأبعدوه عن المدينة ولكن بعد أن قتل الأخوان، واستلم زمام الأمور في طيبة خالهما كربون، الذي أصدر أوامره بمنع دفن جثمان بولينيكيس، لأنه أراد أن يقتحم المدينة بجيش أجنبي. ولكن أخته أنتيغونا دفنت الجثمان على الرغم من إرادة الملك الذي هو بالوقت ذاته خالها، وحاولت إقناعه أن الشعب بكامله يقف إلى جانبها.

وكانت أنتيغونا خطيبة ابن كربون واسمه هايمون، تبنى هايمون موقف خطيبته أنتيغونا ولكن أباه أصر على موقفه وتبنا العراف بكارثة وشيكة، واجتمع شيوخ المدينة الذين اتفقوا على دفن رفات بولينيكيس وإطلاق سراح أنتيغونا.

ولكن قبل أن ينفذ الملك كربون قرار الشيوخ كانت أنتيغونا قد شغقت نفسها في سجنها، واستل هايمون سيفه وانتحر حزناً على خطيبته أنتيغونا، وانتحرت والدته حزناً عليه، أمّا أسمينا- أخت أنتيغونا فهي الوحيدة التي بقيت حية من أسرة أوديب، وعاشت من دون أن ترزق أطفالاً، وبذلك انتهت أسرة أوديب الملك.

١٠- مأساة «بروميثيوس مقيداً»:

تعني كلمة بروميثيوس النبي

كان بروميثيوس يحبُّ الناسُ فعاقبه زيوس عقاباً أليماً بسبب محبته لبني الإنسان، سرق بروميثيوس النار، وأحضرها إلى الإنسان على الأرض، ولذلك قيده زيوس بالسلاسل والأصفاد، على الرغم من أن بروميثيوس قدم خدمات كثيرة لزيوس ولبني البشر فهو الذي علّم الناس الزراعة والكتابة والحساب والطب والتجارة والملاحة. وبنهش نسر كبد الإله بروميثيوس، وتبتلع الأرض الصخرة التي يصلب عليها بروميثيوس، وعرضت المأساة المذكورة على خشبة المسرح عام ٤٧٥ ق.م.

وأراد أسخيلوس أن يقول في مأساته الآتفة الذكر إنَّ على المرء أن يتحمل في سبيل التقدم والرقي كما تحمل بروميثيوس، ويمثل هنا زيوس وهو كبير الآلهة قوة الطغيان والظلم.

ولقد تأثر عدد من الأدباء بمأساة بروميثيوس فكتب الشاعر الألماني غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) مسرحية بعنوان «بروميثيوس» عام ١٧٧٣ ونظم الشاعر الإنكليزي شيلي (١٧٩٢-١٨٢٣) قصيدة بعنوان «بروميثيوس الطليق» وكتب عنه أندريه جيد ملهاة هجائية بعنوان «بروميثيه» ونظم الشاعر العربي أبو القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤) قصيدة بعنوان «الجبار» أو «هكذا غنى بروميثيوس» (١٩٣٣) وهي من ديوان «أغاني الحياة» والتي يقول فيها:

ساعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمم الشامخاء
فاهم فؤادي ما استطعت فإنه	سيكون مثل الصخرة الصماء
إن المعاول لا تهد منكابي	والنار لا تأتي على أعضائي

١١- مأساة «أغاممنون»:

وهي تحدث عن أغاممنون الذي حارب الطرواد وانتصر عليهم وعاد بأموالهم وذهبهم إلى بلاد الإغريق، إلا أن زوجته تأمرت عليه. وكانت كاسندرا بنته بريام ملك طروادة، أخت باريس والتي أصبحت أمة لأغاممنون وقتلت معه قد تنبأت بمصير أغاممنون وقالت له: إن الذهب الذي تحمله سيكون سبباً في قتلك. وبالفعل تقتله زوجته كلوتيمسترا بالتآمر مع عشيقها أيجستوس وكادت كلوتيمسترا أن تقتل ابنها الطفل واسمه أوربستيس لكي لا تبقى أثراً لزوجها المغدور، إلا أن ابنتها الكترا تمكنت من تهريب أخيها الصغير أوربستيس، الذي عاد فيما بعد وانتقم لوالده وقتل والدته وعشيقها أيجستوس الذي هو ابن عم أغاممنون، وزوجة أغاممنون هي أخت هيلانة زوجة مينلاوس التي هربت مع باريس بن بريام الطروادي، وكان هربهما سبباً في اشتعال حرب طروادة التي استمرت عشر سنوات.

ولا بد من الإشارة إلى أن أسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق.م) قد طور كثيراً في المأساة الإغريقية، فبعد أن كان عدد الممثلين على خشبة المسرح واحداً،

أصبح عند أسخيلوس اثنين، واهتم بالديكور والأقنعة والحبكة المسرحية وعنصر التشويق، ولذلك يعده النقاد أبا المأساة الإغريقية. ويقول أمين سلامة في كتابه «مسرحيات أسخيلوس»: «إن أسخيلوس تعهد التراجيديا بالتربية منذ طفولتها حتى جعلها نوعاً من الأدب لم يفقه أو يضارعه نوع آخر، لقد أضفى عليها تركيباً أخيراً ولو في خصائصها على الأقل»^(٧).

١٢- سوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ ق.م):

عاش سوفوكليس تسعين عاماً، ترك لنا مجموعة من المآسي، التي ما زال بعضها يعرض على خشبة المسرح إلى يومنا الحاضر على الرغم من مرور ألفين وخمسة سنة على تأليفها. ولقد استطاع سوفوكليس تطوير المأساة الإغريقية فزاد عدد الممثلين إلى ثلاثة، وكان ماهراً في رمي الكرة، ومنشداً في الجوقة أي أنه كان متعدد المواهب^(٨).

من أهم مسرحيات سوفوكليس المآسي الست التالية، والتي ترجمها إلى اللغة العربية الدكتور طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣)^(٩):

١- الكترا

٢- إياس

٣- أوديب الملك

٤- أنتيغونا

٥- أوديب في كولونا ٤٠١ ق.م

٦- فيلوكتيتيس ٤٠٩ ق.م

١٣- مأساة «الكترا»:

الكترا بنت أغاممنون، أغاممنون أخو مينلوس وبعد عودته أي بعد عودة أغاممنون من حرب طروادة منتصراً تتآمر عليه زوجته كلوتيمسترا مع عشيقها ويقتلانه في حفل استقبال لأنه كان يحمل الكثير من الذهب والأموال والنفائس،

ولقد تتيأت كاسندرا بنت بريام بأنّ الذهب الذي يحمله سيقوده إلى قبره، وتمكنت ابنته إلكترا من تهريب أخيها الصغير واسمه أوريسيتيس ولم تتزوج إلكترا بنت أغاممنون بانتظار النار، أمّا أختها فعاثت حياة هائلة، كروسوتيميس: أخت إلكترا ولا تريد النار، وأمّا زوجة أغاممنون كلوتيمسترا التي هي أخت هيلانة زوجة مينلاوس والتي قتلت زوجها بسبب حبها لعشيقها إيجستوس ولذهب زوجها وأمواله، فكان نصيبها في النهاية الموت مع عشيقها إيجستوس على يد ابنها بعد أن كبر وعاد متكرراً، وحدث هذا بعد أن ادعى المربي أنّ أوريسيتيس قتل في أثناء السباق، وتعلم كلوتيمسترا أنّ ابنها أوريسيتيس يشكل خطراً على حياتها وكذلك ابنتها إلكترا تشكل خطراً على استقرارها، فعلمت أنّ ابنها مات وحرق وأصبح جثمانه رماداً.

ولكن أوريسيتيس يعود وتؤكد إلكترا من ذلك إذ إنه يحمل خاتم أبيه، ويقتل أمه التي كانت قد قتلت أغاممنون زوجها ويقتل عشيقها إيجستوس في المكان ذاته الذي قتل فيه والده أغاممنون.

١٤- مأساة «إياس»:

هو بطل من أبطال اليونان الذين حاربوا الطروداد، وكان يأمل أن يحصل على سيف آخيل إلا أنّ أوديسيوس حصل على السيف ولذلك فقد إياس عقله، وأخذ يذبح قطع الأغنام، وظن أنه يذبح الرجال، وفي نهاية المأساة أقدم على الانتحار، وتردد أوديسيوس في دفن جثته ولكن في نهاية المطاف دفن جثمانه، وقضية دفن الجثمان كانت قضية مهمة بالنسبة لليونانيين القدماء، فليس كل إنسان يستحق الدفن، كما هو واضح في مأساة أخرى لسوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ ق.م)، وهي مأساة (أنتيغونا) وأنتيغونا هذه هي ابنة أوديب من أمه جوكاستا.

١٥- مأساة «أوديب الملك»: كتبها ٤٢٠ ق.م

تحدث المأساة عن الملك لايوس، ملك طيبة، الذي لم يرزق أطفالاً خلال فترة طويلة من الزمن، فذهب إلى الكاهن، فقال له الكاهن: «ستجب طفلاً يقتلك،

ويتزوج أمه»، وعندما رزقه الله طفلاً، أمر الملك لايوس، ملك طيبة راعياً من الرعاة أن يأخذ الطفل إلى جبل بعيد كي يموت الطفل هناك، أو يفترسه وحش. ولكن الراعي أشفق على الطفل وأسلمه لراعٍ آخر من مملكة كورنثة، وكما يقول الراعي مخاطباً أوديب الملك: «الراعي: بل هي الحقيقة... وفي مقدورك أن تسأل الملكة «جوكاستا»... فقد كان كل شيء في حضورها ويعلمها... لقد دفعوا إلي هذا الطفل لأهلكه، ولكن قلبي لم يجرؤ على إهلاكه... وسلمته إلى هذا الرجل...»^(١٠)، وقام الراعي الآخر وأسلمه بدوره إلى الملك بوليوبوس ملك مملكة كورنثة، المحروم من البنين، فرباه وهياه لولاية عهده.

وعندما كبر أوديب أنبأته العرافة بأنه سيقتل والده ويتزوج أمه، ولكي يهرب من قدره، هرب من مملكة كورنثة متوجهاً إلى مملكة طيبة، وهو لا يعلم أنه متوجه إلى والده، ووالدته الحقيقيين، وأنه متوجه إلى وطنه الحقيقي.

ويلتقي في الطريق رجلاً، معه خمسة من أتباعه، ومعه أيضاً سائق العربية، أيّ أن عدد مرافقيه ستة إضافة إليه، وكان هذا الرجل هو الملك لايوس ملك طيبة، دون أن يعلم. ويختلف أوديب معه حول من الذي سيغير الطريق أولاً، فيقتله أوديب بالهراوة، ويقتل خمسة من أتباعه، ويستطيع واحد فقط من أتباع الملك لايوس الهرب، وكان هذا المرافق الذي هرب هو ذلك الراعي الذي حمل أوديب طفلاً إلى الجبل لينتكره هناك.

ويدخل أوديب مدينة طيبة، فيجد أهلها في فزع من وحش له جسم أسد وجناح نسر ووجه امرأة. أيّ إن هذا الوحش يجمع في ذاته أجمل وأقوى ما في المخلوقات وجه المرأة وجسم الأسد وجناحي النسр. يطرح هذا الوحش الغريب على أوديب اللغز، الذي يطرحه على الناس كلهم: «إليك سؤالاً.. إذا عجزت عن جوابه فإني أفترسك: ما هو الحيوان الذي يعيش في الصباح على أربع، وفي الظهر على اثنتين، وفي المساء على ثلاث؟...»^(١١).

وبحل أوديب اللغز، بأن الإنسان هو الذي في الصغر يجبو على يديه وقدميه، وفي الكبر يستوي ماشياً على قدميه، ويتوكل على العصا شيخاً.

الجواب واضح، إلا أن معظم الناس لا يرون أنفسهم ولذلك عجزوا عن حل اللغز، ووقعوا ضحية الوحش، أما أوديب الباحث عن ذاته فحل اللغز، وأخرس الوحش، وقتله وألقى به في البحر. ودخل مدينة طيبة، التي استقبلته، وأجلسته على عرشها، ومنحته يد ملكتها. دون أن يدري أحد أنه يتزوج والدته. وينجب منها نسلًا جميلًا، أنجب منها طفلين وطفلتين، كانت أنتيغونا وإداهما، وعاش أوديب مع زوجته جوكاستا، أمه سابقًا قرابة سبعة عشر عامًا حياة سعيدة، حتى كانت تظن إنها فعلت خيرًا، إذ ألقت بابنها الأول على الجبل لأنه لو كان ما زال على قيد الحياة لنغص عليها حياتها مع أوديب، دون أن تدري أن ابنها عاد إليها زوجًا.

تغضب الآلهة على المدينة، وتصيبها بوباء الطاعون وأخذ الموت يطيح بالقطعان في المراعي، ويبطش بالأطفال في المهود، ويحصد الأرواح ويثير الدمار. ويرى الكاهن أن الخلاص في الرجوع إلى الإله ويذهب الكاهن مع كريون، وهو أخو الملكة جوكاستا إلى معبد «دلف» لمعرفة سبب البوباء. ويعرف الكاهن أن البواء لن يزول ما لم يعرف من قتل الملك لايوس. ويطلب من الملك أوديب معرفة القاتل. ويكتشف أوديب من أقوال الراعي الذي حمله طفلًا من طيبة والراعي الذي حمله إلى كورنثة أنه هو ابن جوكاستا ولايوس وأنه هو القاتل. وأن أولاده الأربعة هم في الوقت ذاته أخوته من أمه وأن زوجته هي أمه ذاتها.

خفقت جوكاستا نفسها، وفقًا لأوديب عينية لكي لا يرى الناس، ولكي لا يرى ثمرات زواجه من أمه ولكي يبكي جوكاستا بدموع من دم.

ويقول أوديب: «... أنا سليل أم دنسة، وأنا أب لأخوتي»^(١٧). ويقول أيضاً مخاطباً ابنته بعد أن فقأ عينيه: «وكذلك أخرجتكما من الأحشاء التي خرجت منها، وبني لأبكي عليكما، بعد أن حيل بيني وبين رؤيتكما، أبكي عليكما، حين أقدر كل الآلام المرة التي يجب أن تلقياها طوال حياتكما من

الناس.. وإنّ فأيّ الناس يستطيع أن يتزوجكما؟ لن يتزوجكما أحد يا بنتي، إلى أن تقنيا حياتكما في العقم والوحدة»^(١٣).

وهام أوديب على وجهه. وبذلك لا ينجو أوديب ووالداه من القدر. ويقدم أوديب على أكثر من جريمة دون قصد أو عمد أو دون أن يدري، الأولى قتل الوالد والثانية الزنى في الوالدة والثالثة التسبب في العار والذل لذريته.

وقد يكون الملك لايبوس والملكة قد ارتكبا جريمة كبرى عندما قررا قتل ولدهما أوديب لكي ينجوا من قدرهما، وبذلك فهما يستحقان الموت.

أمّا أوديب فما هي جريمته؟ لماذا كان هذا هو قدره؟ أرى أنّ الإثم الذي اقترفه أوديب هو محاولته البحث عن الحقيقة ولذلك أنزل من عرشه بعد أن عرف الحقيقة وأمضى بقية حياته في الشقاء. فهو بذلك، أيّ في هذه النقطة فقط يشبه آدم الذي أكل من تفاحة المعرفة، فحرم من الفردوس وأخذ يأكل خبزه بعرق جبينه. ولكن آدم لم يستطع أن يفعل إلا ذلك وكذلك أوديب لأنّ حبّ المعرفة موجود في دمه، وسيبحثان عن الحقيقة والمعرفة حتى ولو كلفهما ذلك فقدان الفردوس أو الحياة الهادئة السعيدة وهذا ما حصل لهما.

والصراع في المأساة الأنفة الذكر بين حكم القدر وبين محاولات الإنسان التغلب على قدره، وكما نرى في هذه المأساة، للقدر سلطان ساحق على الإنسان تتحول به انتصارات المرء إلى هزائم، وهزائمه إلى انتصارات.

- رأي أرسطو في مأساة «أوديب الملك»:

يرى الفيلسوف الإغريقي الشهير أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه «فن الشعر» وهو من الكتب الأولى في النقد الأدبي أنّ موضوع مأساة «أوديب الملك» هو سلطان القدر على الإنسان وعدّ أرسطو الشاعر سوفوكليس عملاقاً في مجال الشعر المسرحي^(١٤).

- رأي فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) في مأساة «أوديب الملك»:

أعتقد أنّ رأي أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) سليم إلا أنّ رأي عالم النفس المعروف فرويد، مغاير لهذا الرأي. ففي الفصل الخامس من كتابه «تفسير

الأحلام» الذي صدر عام ١٩٠٠ باللغة الألمانية والذي صدرت الطبعة الأولى منه باللغة العربية عام ١٩٥٨، يعارض فرويد الرأي السائد بأنَّ مأساة «أوديب الملك» هي من مأساويات القدر. يرى عالم النفس المذكور أنَّ مأساة «أوديب ملكاً» تهز اليوم معاصرنا مثلما هزت معاصريها من الإغريق. «فلا تفسير لذلك إلا أنَّ وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد، وإنما ينبغي علينا أن نلتمس سر هذا الوقع في طبيعة المادة التي تشخص بها هذا التضاد.. فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن نصير إليه، لأنَّ النبوءة قد صبت علينا، ولما نولد، تلك الدعوة التي صبت عليه، فلقد قدر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسيَّ جهة الأم، وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب. وأحلامنا تقنعنا بأنَّ الأمر كذلك»^(١٥).

ونكر فرويد عبارة من نص مأساة سوفوكليس إذ تقول الملكة جوكاستا لابنها الملك أوديب محاولة التخفيف من ألمه: «والخير في أن يستسلم الإنسان للحظ ما استطاع، أمَّا أنت فلا تخف من فكرة الاقتران بأمك، فكثير من الناس من ضاجعوا أمهاتهم في أحلامهم، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالاً»^(١٦).

ولقد عبّر فرويد عن آرائه المذكورة في رسائله إلى أحد أصدقائه عام ١٨٩٧، أي قبل صدور كتابه «تفسير الأحلام» بثلاث سنوات كما يشير جان ستاروبنسكي في كتابه «النقد والأدب»^(١٧) إذ يرى فرويد أنَّ هذا الشعور تجاه الأم يظهر لدى الطفل عندما يبلغ الثانية أو الثانية والنصف من عمره. ويرى أنَّ الأسطورة الإغريقية المذكورة عالجت غريزة، يعترف بها الناس كلهم، لأنهم أحسوا بها في قرارة أنفسهم وكل من رأى المأساة كان قد شب في يوم من الأيام على عاطفة أوديب، أو أنها اختلجت في خاطره وخياله ولذلك يعترضه الجزع حين يرى هواجسه الخفية، تنتقل إلى حيز الواقع، ويتم تنفيذها.

ولكن النقد الأدبي يرفض فكرة فرويد، وهذا المسرحي توفيق الحكيم (١٩٠٢-١٩٨٧) يرد عليه، ويفهم أنَّ مأساة أوديب في بحثه عن الحقيقة، وفي خروجه عن النظام العام، فهو ترك مدينة كورنثه باحثاً عن الحقيقة^(١٨).

ولقد استوحى المسرح العربي مأساة «أديب» فكتب أحمد علي باكثير (١٩٦٩-١٩١٠) مأساة بعنوان «مأساة أديب»، كما كتب الكاتب المصري فوزي فهمي مسرحية بعنوان «عودة الغائب» (١٩٧٧) مستلهماً مأساة «أديب الملك» لسوفوكليس، وكذلك توفيق الحكيم (١٩٠٢-١٩٨٧) الذي كتب مأساة «الملك أديب» (١٩٤٩).

١٦- مأساة «أنتيغونا»: كتبها ٤٤١ ق.م

وكان لدى أوديب ابنتان، الأولى (أنتيغونا) والثانية (اسمينا)، ابنة الأكبر (بولينيكيس) والأصغر (أيتيوكل) اتفق الأخوان على تقاسم الحكم في طيبة مع كريون خالهما، أخي جوكاستا إلا أن الأخ الأصغر عندما استلم الحكم استفرد به، ونشبت حرب بين الأخوين، وانتهت المعركة بمبارزة الأخوين ومقتلهما، كل واحد بيد الآخر.

ورأى ملك طيبة آنذاك واسمه كريون منع بولينيكيس من الدفن لأنه جرد جيشاً أجنبياً على بلاده. فدفن (أيتيوكل) الأخ الأصغر، وبقي بولينيكيس من دون دفن.

قررت أنتيغونا دفن جثمان أخيها رغم المنع الذي أصدره الملك كريون - خالها وعرف كريون أن أحداً دفن جثمان بولينيكيس، ولم يعرف من الذي خرق قرار منع الدفن فطلب من الحرس نبش القبر وإعادة الجثة إلى العراء.

وفي الليل رأى الحراس فتاة تبكي قرب الجثمان وعرفوا أنها (أنتيغونا) وسلموها للملك كريون - خالها. وأراد الملك قتلها وقتل أختها (اسمينا) لاعتقاده بتعاونها معها.

ولنتيغونا بالوقت ذاته هي خطيبة ابن كريون واسمه (هايمون) وقرر كريون أن يدفن أنتيغونا حية. وبعد ذلك استبد به الخوف من العقاب الإلهي فدفن بنفسه جثمان بولينيكيس، وقرر أن يعفو عن أنتيغونا، إلا أن قراره جاء متأخراً فلقد شنقت نفسها بثوبها. وينتحر (هايمون) بن كريون بسيفه بعد أن فقد خطيبته.

عندما علمت أمه - زوجة كريون - بانتحار ابنها، أقدمت هي الأخرى على الانتحار بالسيف. وفي النهاية بعد أن فقد كريون ابنه وزوجته تمنى الموت لنفسه.

وهذه المأساة تمثل صراع الفرد ضد السلطان الظالم وضد الطغيان والقهر والقوانين الجائرة التي يجسدها كريون وبذلك انتهت أسرة أوديب الذي قتل والده وقتل ابنه وانتحرت ابنته أنتيغونا.

أوديب في كولونا:

كتبها ٤١٠ ق.م، أي قبل وفاته بأربع سنوات. بعد أن قتل أوديب أباه وعرف ذلك، خرج من طيبة طريداً شريداً تقوده ابنته أنتيغونا، حتى انتهى إلى كولونا، وهي قرية صغيرة قرب أثينا، فتنتهي المأساة الآفة الذكر بوفاة أوديب الملك.

فيلوكيتيس:

في أثناء سفره للمشاركة في حرب طروادة لدغته أفعى في رجله، وانبعثت منها رائحة كريهة، فتركه اليونان في إحدى الجزر، ولكن الآلهة أبلغتهم أن النصر لن يتحقق إلا إذا شارك في الحرب فيلوكيتيس، فذهب أوديسوس وراءه وعاد به.

١٧ - يوربيدس (٤٨٠ - ٤٠٨ ق.م):

ولد في اليوم ذاته الذي نشبت فيه معركة سلامين بين الإغريق والفرس. لا تتوفر معلومات كافية عن وضع أسرته الاجتماعي والمادي، وأغلب الظن أنه نشأ في أسرة متوسطة الحال. وكان واسع الاطلاع، ومع ذلك فلم يتقلد منصباً حكومياً، أو يشغل وظيفة من وظائف الدولة، جلية كانت أم حقيرة، مدنية كانت أم عسكرية، وتفرغ لدراسه، وتزوج مرتين دون أن يجد السعادة، إذ خانت زوجته الأولى وكذلك فعلت الثانية، ولذلك كانت حياته انعزالية، واتخذ من الكتب أصدقاء له.

حياته الأدبية:

شارك للمرة الأولى في المسابقات المسرحية عام ٤٥٥ ق.م أي عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره. ومن أعماله:

١ - تراجيديا «ميديا» وموضوعها الأساس هو الغيرة القاتلة:

من أشهر مسرحياته، تراجيديا «ميديا» التي مثلت عام ٤٣١ ق.م وتتضمن التراجيديا حكاية شاب اسمه جازون وهو ابن ملك، إلا أن عمه استطاع انتزاع العرش منه، ولكن جازون تزوج ابنة ملك آخر واسمها ميديا التي كانت تتعاطى السحر، وساعدت زوجها كثيراً وأنجبت منه طفلين، ولكن زوجها هجرها وتزوج فتاة أخرى لأن مصلحته اقتضت ذلك، فانتقمت منه ميديا إذ أرسلت لضرتها ثوباً مسموماً، لم تلبث أن ارتدته وماتت. وقتلت طفلها لكي تحرم زوجها منهما، ولكي تنتقم منه.

٢ - مأساة «هيبوليت» ٤٢٨ ق.م:

تروي حكاية شاب اسمه هيبوليت مع زوجة أبيه، التي أرادت أن تقيم علاقة مع ابن زوجها ولذلك استغلت انشغال زوجها بالصيد وغيابه عن البيت فأرسلت المربية إلى ابن زوجها، التي أبلغته أن زوجة أبيه مريضة، وسبب مرضها هو حبها له، فرفضها فأقدمت على الانتحار ولكن بعد أن تركت كتاباً أو رسالة لزوجها، تتضمن أنها انتحرت لأنها ارتكبت مع ابن زوجها ما كانت لا تود ارتكابه، فانتحرت لأنها خانت زوجها.

فجاء والد هيبوليت وقرأ الرسالة، وطرد ابنه ولعنه وتمنى له أن يموت أشنع ميتة. وحدث ما تمناه الأب لابنه، ولكن أحد الآلهة كشف للأب أن ابنه كان شريفاً، ولكن بعد فوات الأوان.

١٨ - الكوميديا:

عرفها أرسطو (٣٨٤-٣٢٢) في كتابه «فن الشعر» على أنها تصوّر الناس أسوأ مما هم عليه في الواقع، وتثير السخرية والضحك من أجل تغيير الناس من صفات معينة مثل البخل أو الكبرياء..

وأبطالها عادة من عامة الشعب ولغتها بسيطة في حين أن أبطال التراجيديات من طبقة النبلاء والملوك والأمراء، ولغتها جزلة، وتثير في الآخرين شعوراً بالخوف أو الرحمة وتتوخى تحقيق هدف أخلاقي. ويرى أرسطو أن المأساة والملهاة تقوم على أساس المحاكاة.

تطورت الكوميديا من الهجاء في حين نشأت التراجيديات من المديح، وتطورت الكوميديا أيضاً من الطقوس الدينية. وهي مرتبطة بالموسم الزراعي، موسم عصر العنب وصناعة الخمرة، والاحتفالات بإله الخمرة، واسمه باخوس، التي ترافقها. لعل أريستوفان (٤٥٠-٣٨٥ ق.م) أي عاش ٦٥ عاماً من أهم الذين كتبوا الكوميديا. كان والده يملك قرية صغيرة ويعيش من غلة أرضها. ومن أعماله:

١- كوميديا «الغيوم» (٤٢٣ ق.م) يسخر فيها من سقراط، وتقدم للمسابقة بهذه الكوميديا وحصل على المرتبة الثالثة، تصور الكوميديا صراع الأجيال، وتصور حياة ابن فلاح مبذر ورث عن والدته صفة التبذير، ويبذر نقوده، وينام معظم الوقت، ويترك شعره طويلاً. يرسله والده ليتعلم فن الإقناع لدى سقراط، لأن الديون تراكمت على الابن فيريد التملص من القضاء. ويستطيع الابن الفاشل طرد الدائنين والتخلص منهم، متسلحاً بمنطق سقراط الذي يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وتنتهي الكوميديا بأن هذا الابن استطاع أن يبرر بفضل فلسفة سقراط أي تصرف قذر، مثل ضرب الابن لأبيه ضرباً مبرحاً، ويضرب أباه ويثبت أن ما يفعله هو عين الحق. ولذلك يقوم الأب بحرق مدرسة سقراط لأن السحر انقلب على الساحر. ويطلب سقراط في هذه الملهاة من مستمعيه عبادة الغيوم لأنها مصدر المطر بدلاً من عبادة زيوس كبير الآلهة.

٢- كوميديا الضفادع (٤٠٥ ق.م) وينتقد فيها المسرحيين الكبارين وهما أسخيلوس، ويوريبيدس، يهجو كل منهما الآخر أمام الجمهور وينتصر أسخيلوس على منافسه. يتضح من الحوار أن ميزات أسخيلوس:

١- وضوح الأفكار.

٢- الأسلوب الجميل.

٣- محاولة زرع الأخلاق النبيلة.

ويرى خصمه فيه عيوباً كثيرة منها الحشو والتكرار ويرى أسخيلوس أن يوريببديس حاول إفساد الشبيبة. وبذلك فإن هذه الكوميديا هي أول كتاب نقدي، جاء على شكل مسرح

الأدب اللاتيني أو الروماني

(١٤٦ ق.م - ٥٠٠ م)

١- نشأت روما في القرن السابع ق.م:

واستطاعت تحقيق النصر العسكري على أثينا عام ١٤٦ ق.م إلا أنها أصبحت تابعة لها ثقافياً، واقتبست روما عن الإغريق النظام الجمهوري. وكان يقود سياسة البلاد مجلسان، الأول مجلس الشيوخ ويؤلف من الأشراف، والمجلس الثاني من المواطنين العاديين ويسمى مجلس العموم. ويتألف الشعب من طبقتين رئيسيتين الأولى طبقة الأحرار، والثانية طبقة العبيد.

تعزز نفوذ روما في القرن الأول قبل الميلاد وأصبح البحر المتوسط في تلك الفترة بحيرة رومانية، إذ استطاعت روما مد نفوذها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

حاول يوليوس قيصر^(١) (١٠٠ ق.م - ٤٤ ق.م) الذي حكم روما مدة سنتين ما بين عامي ٤٦-٤٤ ق.م إلغاء النظام الجمهوري في روما، ونصب نفسه حاكماً مطلقاً، وجمع السلطات كلها بيده، ولذلك ثار ضده مجلس الشيوخ، واتفق سنون عضواً على التخلص منه، وقاد المعارضة كاسيوس وبروتوس، وتم اغتياله بالخناجر عام ٤٤ ق.م، يوم الخامس عشر من آذار، وأعيدت إلى مجلس الشيوخ

سلطته. وعاد النظام الإمبراطوري إلى روما عام ٢٧ق.م واستمر إلى عام ٣٦٤م
إن انقسمت الإمبراطورية إلى إمبراطوريتين: الإمبراطورية الغربية وعاصمتها
روما، والإمبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية التي سقطت على يد محمد
القابع عام ١٤٥٣، ولقد بنى الرومان في البلاد التي كانوا يسيطرون عليها
المسارح، التي ما زال بعضها قائماً بحالة جيدة إلى يومنا الحاضر، مثل مسرح
بصري الذي يتسع لأكثر من خمسة عشر ألف متفرج. ومن بين أباطرتها نيرون،
الذي حكم روما من (٥٤-٦٨م) ومات مقتولاً.

٢- فرجيل: (٧٠ق.م-١٩ق.م):

عاش واحداً وخمسين عاماً، ولد في أسرة غنية، ساعدته في الحصول على
التعليم، نشأ في الريف في شمال البلاد. وهو من أهم الأدباء الرومان، نظم «أناشيد
الرعاة» وهي عشرة أناشيد و«أناشيد الحقول» أو «أناشيد المزارعين» وتضم ألفي
بيت، ولكن أهم إنجازاته «الإنيade» بدأ بنظمها عام ٣٠ قبل الميلاد أي عندما بلغ
الأربعين من عمره واستمر بنظمها أحد عشر عاماً أي إلى نهاية أيام حياته، ولم
يكن فرجيل (٧٠ق.م-١٩ق.م) راضياً عن عمله فطلب حرقه، إلا أن الملحمة لم
تحرق، ونشرت بعد عامين من وفاة فرجيل بأمر من الإمبراطور أغسطس وحفظت
بعد نشرها نجاحاً كبيراً، أخذت ملحمة «الإنيade» تسميتها من اسم القائد الطروادي
إينياس، وتمجد الإمبراطور الروماني أغسطس الذي يعده فرجيل من سلالة القائد
الطروادي إينياس، وتقوم على أسطورة شعبية ليس لها أساس تاريخي. تقول
الأسطورة إن الرومان هم أحفاد الطرواد، الذين قصدوا روما بعد سقوط عاصمتهم
طروادة على يد الإغريق.

تنقسم «الإنيade» إلى اثني عشر جزءاً، يبلغ عدد أبياتها ٩٨٩٦ بيتاً،
ويبدو نصف ملحمة «الإنيade» عن الحرب، والنصف الآخر عن المغامرات،
وهي بذلك تقلد ملحمتي هوميروس «الإلياذة» و«الأوديسة» وتختلط فيها
أعمال الشخصيات الإنسانية مع عمل الآلهة، ولكن للقدر قوة تفوق قوة الآلهة

والبشر، وتبدأ ملحمة «الإلياذة» من نهاية أحداث «الإلياذة» لهوميروس أي من هزيمة الطرواد، إذ يسافر البطل الطروادي إنياد وهو من أب طروادي وأمّه إلهة الجمال فينوس، إلى سواحل القارة الأفريقية إلى قرطاجنة، بعد أن خسر الطرواد حربهم مع الإغريق، وتقوم قصة حب بينه وبين ملكة قرطاجنة واسمها ديدو أو أليسا وهي فينيقية، من مدينة صور، رحلت من صور إلى قبرص، ومن قبرص إلى سواحل تونس، وأسست هناك مدينة قرطاجنة، التي تعرف من إينياس الطروادي قصة حرب طروادة بشكل مفصل. ويترك إينياس قرطاجنة إلى صقلية ويصل إلى إيطاليا، ويبني فيها مدينة^(٢) عندما علمت ديدو ملكة قرطاجنة برحيله أقدمت على الانتحار.

- ملحمة فرساليا للشاعر لوكان (٣٩-٦٥م):

غطت شهرة «الإلياذة» على غيرها من الملحم. عمل الشاعر لو كان بالأعمال الإدارية، واختلف مع الإمبراطور نيرون، إذ كان الشاعر في بلاطه، فاضطر أو فرض عليه الانتحار. وتخلو الملحمة من تدخل الآلهة الذي عرفناه في الملحم السابقة الإغريقية والرومانية، والملحمة ذات مستوى فني جيد، وتنادي بالنظام الجمهوري، ويذكر الشاعر دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) اسم مؤلفها أكثر من خمسين مرة.

٣- الشاعر أوفيد: (٤٣ ق.م - ١٧م):

وكرّث في الأدب اللاتيني المراثي، ومن الشعراء الذين لمعوا شاعر اسمه أوفيد ٤٣ ق.م - ١٧ بعد الميلاد وهو من أسرة رقيقة، وهو من مدينة سولونا، وتبعد مئة كيلومتر عن روما وكان ممن أحاطوا بالإمبراطور أغسطس وله قصيدة بعنوان «التحويلات» التي قام بترجمتها الشاعر أدونيس، ويقسم فيها التاريخ الإنساني إلى أربع مراحل:

١- العصر الذهبي.

٢- العصر الفضي.

يتنفي في هذه القصيدة بالعصور الأولى للبشرية حيث سادت المحبة وكثر الخير: هذا هو العصر الذهبي، وجاء بعده العصر الفضي، حيث عرف الإنسان الزراعة، وكلن العصر الثالث عصر النحاس حيث غاب الحياء والحق والإخلاص وحل محلها الكيد والخداع والعنف وقوة الكسب المجرمة، وكان العصر الرابع عصر الحديد والذهب فاتخذت الحرب من المعدنين سلاحاً وساد الغدر والدهاء والخيلة، ويرمز الذهب إلى المال والمادة، وهكذا فإن أوفيد يقّس الماضي، ويندب حظ البشرية الحاضر، لأنّ الأخلاق تتحدر، فيحل الشقاء مكان السعادة، ويحل الفساد مكان الأخلاق، ولكن لا بد لنا أن نتساءل هل صحيح أنّ البشرية تتطور نحو الفساد والشقاء؟ يبدو أنّ مفهوم السعادة والأخلاق مفهوم نسبي، فما هو صحيح للبراحة، قد يجوز لا نراه، نحن أبناء اليوم، صحيحاً، وكذلك أبنائونا قد لا ينظرون إلى الكون بنظراتنا، فلهم عيونهم ونظراتهم وعقولهم، ولقد صدق الإمام علي بن أبي طالب حين قال: «لا تربوا أولادكم على ما أنتم عليه، لأنهم مولودون لزمن غير زمانكم». وتقوم الأنظمة والقوانين في زماننا الحاضر مكان الشهامة الفرديّة في الماضي. ينتقد الشاعر الحاضر، ولكن الماضي لم يكن كما صورّه الشاعر، وتتل بعض أبيات القصيدة على روعتها وجمالها: «ولم يتهدد الناس قانون منقوش على أفراس النحاس، كلا، ولم تروعهم خوذة ولا سيف، بل عاشوا في أمن وسلام»^(٣) ويتابع بأنّ الأرض أعطت ثمارها في الماضي دون أن يشقها محراث. ولكن أوفيد لا يشير إلى أنّ الإنسان البدائي لم يكن يعرف المحراث، وماذا عساه سيقول لو عاش في عصرنا ورأى الآلات الزراعية الحديثة.

ويرى أوفيد (٤٣ ق م - ١٧ م) أنّ كلّ عصر هو أسوأ من سابقه ولكنه أفضل من خلفه فيقول: «فلانت - بالفرار صفات «الحياة» و«الحق» و«الإخلاص» وحل محلها الكيد والخداع. والعنف وشهوة الكسب المجرمة»^(٤) ويتابع: بأنّ الغدر ساد وانتشر، فأخذ القريب يغدر بقرابه، وصاحب البيت يغدر بضيفه.

ويرى الدكتور حسام الخطيب في تعليقه على القصيدة الآتية الذكر أنَّ
«... مفهوم السعادة تغير اليوم، وكذلك مفهوم الأخلاق، كانت السعادة في
الماضي مبنية على الاستسلام لإرادة القدر...»^(٥).

ويتابع الدكتور حسام الخطيب أنَّ مفهوم الأخلاق كذلك تغير، فإلى
جانب الأعراف والتقاليد هناك القوانين والأنظمة المحلية والدولية، وما زال
الظلم قائماً، ولكن هناك ثورات ضد الظلم والقهر والاستبداد. صحيح أنَّ
القوانين منذ وجدت إلى يومنا الحاضر لا تطبق تماماً، ولكن وجودها أفضل
من غيابها، وينتقد أوفيد التطور في مجال بناء السفن، لأنَّ صناعة السفن
تقتضي اقتلاع الأشجار، وتدمر جمال الطبيعة^(٦).

أستطيع القول إنَّ الشاعر أوفيد يعبر في قصيدته الآتية الذكر عن
أحاسيس شعبية في مرحلة انتقالية، فلدى الشعب بوجه عام نظرة تقدس
الماضي، وتنقد الحاضر، ويعبر الشاعر عن مشاعر الشعب في المرحلة
الانتقالية خير تعبير. وكما يقول الدكتور حسام الخطيب: «بوسع المرء أن
يستسيغ أو ينقض أو لا يكثر بأفكار أوفيد، ولكن ليس بوسعه إلا أن يعترف
بجمال العرض، وخصوصية الخيال»^(٧).

- قصيدة «فن الهوى»

لأوفيد قصيدة بعنوان «فن الهوى»

يخاطب في هذه القصيدة الرجال فيقول:

«إن تمنع القبله عنك،

حاول أن تقطفها قسرا

قد تجد مقاومة منها،

وتسبك قاتلة: «يا وعد»

بينما هي في الحق تدوب

* * *

المرأة أقوى في إخفاء رغبتها

آه لو أمكننا أن نتماسك

وإن نكبح أنفسنا

ولا نبدأ بالإقدام

ولا نسعى إلى المرأة نتوسل

إنّا، لانقلب الموقف

وتوسلت المرأة»^(١)

ولا بأس من الإشارة إلى أن شنكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) اقتبس قصيدته الأولى بعنوان «فينوس وأدونيس» (١٥٩٣) عن قصيدة للشاعر الروماني أوفيد ٤٣ ق.م-١٧ بعد الميلاد، وكان شنكسبير في قصائده الأولى متأثراً بالشاعر الروماني المذكور.

هوراس (٦٥-٨ ق.م):

ومن الأدباء الذين لمع اسمهم شاعر اسمه هوراس عاش في القرن الأول قبل الميلاد، عمل والده، وهو من العبيد، في جباية الضرائب، وجمع بعض المال، علم به ابنه، ولكن هوراس وقف في الحرب التي دارت ضد يوليوس قيصر إلى جانب المهزومين أي إلى جانب بروتوس وكاسيوس، فصادت السلطات أملاكه القليلة، وعاش فقيراً ترك لنا مجموعة من الأناشيد وترك لنا كتاباً نقدياً بعنوان «فن الشعر». عاش هوراس ما بين (٦٥-٨ ق.م).

٤- الخطابة:

اهتم الرومان بالقضايا السياسية، وكان خطيبهم الأول شيشرون الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، والإنسان عند شيشرون كائن حي ناطق، مقابل الإنسان المفكر عند أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م). وعد الرومان القدرة

على البلاغة فضيلة أخلاقية، والإنسان القادر على الإفصاح أرقى من غيره في سلم الأخلاق، فبعد مقتل يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م. استلم الحكم في روما ثلاثة هم أنطونيو وأوكتافيوس وليبيدس، وألقى شيشرون مجموعة من الخطب ضد أنطونيو، كانت أحد أسباب قتل شيشرون. (١٠٦-٤٣ ق.م).

٥- الفلسفة:

لمع اسم أفلوطين الاسكندري (٢٠٣-٢٦٩م) وتطور فلسفته حول صفات الله، فالله عنده ليس سكوناً ولا حركة وهو فوق المادة وفوق الروح، ونشأ الكون من الخالق، كما ينبعث الضوء من اللهب، وللفضيلة برأيه ثلاث مراتب.

١- المرتبة الأولى: التحرر من عبودية المادة.

٢- المرتبة الثانية: هي القدرة على التأمل والتفكير.

٣- المرتبة الثالثة: سمو النفس فوق التفكير، واتحاد النفس بالخالقها، وذوبانها فيه.

وخلاصة القول: لقد قلد الرومان اليونان، واهتموا بالأدب المسرحي، وكان اهتمامهم بالكوميديا أكثر من اهتمامهم بالتراجيديات.

المصادر والحواشي والإحالات

- (١) د. جورج حنا، قصة الإنسان، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، ١٩٩٧، ص ٤٥.
- (٢) د. عبد السلام كفاقي، في الأدب المقارن، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص ١٣٢.
- (٣) أحمد أمين، قصة الأدب في العالم في ثلاثة أجزاء، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٣٠١.
- (٤) أحمد أمين، قصة الأدب في العالم في ثلاثة أجزاء، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٣٠٢-٣٠٤.
- (٥) د. حسام الخطيب، جوانب من الأدب والنقد في الغرب، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٧، الطبعة السادسة، ص ٦٤.
- (٦) المرجع السابق، ص ٦٤.
- (٧) المرجع نفسه، ص ٦٩.
- (٨) سليم مكرزل، الشعر العالمي، بيروت، مؤسسة عز الدين، ١٩٨١، ص ٢١٨.
- (٩) فرجيل، الإنيادة، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧١.

العصور الوسطى

(٥٠٠-١٥٠٠م)

مقدمة:

امتدت ألف عام وتنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:

مرحلة آباء الكنيسة اللاتينية (٥٠٠-١٠٠٠)، إذ سقطت روما عام ٤٧٦م بسبب هجمات القبائل الجرمانية البربرية المتتالية.

١- استمرت العصور الوسطى ألف عام: فلقد انتشرت الديانة المسيحية في أوروبا منذ القرن الخامس الميلادي ولمع اسم القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠)، ورأيه الأساسي أن تقف الفلسفة من الدين موقف الخادم من السيد، وكما يقول حسن عثمان: «نجد أهل العصور الوسطى عامة قد آثروا الإيمان على الفهم...»^(١).

المرحلة الثانية:

٢- العصر المدرسي: ويمتد من (١٠٠٠-١٥٠٠) بدأ الاهتمام أكثر بالفلسفة على حساب الدين مع حلول القرن الحادي عشر ولمع اسم توماس الأكويني (١٢٢٦-١٢٧٤) الذي حاول أن يوفق بين الفلسفة والدين. ظهرت المدن على الشواطئ في هذه الفترة وكذلك ازدهرت التجارة وظهرت طبقة الإقطاع.

١- ملحمة رولان:

تعد من أروع الملاحم الفرنسية، يعود تاريخها إلى نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، وسميت ملحمة رولان نسبة إلى رولان ابن أخي شارلمان، وتتألف الملحمة من أربعة آلاف بيت، ويختلط فيها التاريخ بالخيال، وتروي حادثة تاريخية، وهي أن والي سرقسطة الأمير اليمني سليمان بن العربي خرج على حكم عبد الرحمن بن معاوية، المعروف بعبد الرحمن الداخل أو بصقر قریش. وأرسل الأمير اليمني سليمان بن العربي إلى شارلمان (٧٤٢-٨١٤) يغريه بمحاربة عبد الرحمن الداخل ووافق شارلمان إلا أنه عندما اقترب من سرقسطة في شمال إسبانيا، كان الأمير سليمان قد اغتيل، ويقرر شارلمان التراجع لأن المفاجأة قد صعقته، في أثناء التراجع يهاجم الفلاحون الأسبان جيش شارلمان (٧٤٢-٨١٤) فكان ذلك نصراً لعبد الرحمن الداخل وهزيمة لشارلمان (٧٤٢-٨١٤) والذي عاونه في الحملة ابن أخيه رولان، ونسبة إليه سميت الملحمة، التي بنيت على واقعة تاريخية، ولكنها تضيف إلى الوقائع التاريخية أشياء كثيرة نسجها خيال المؤلف أو خيال المؤلفين لأن مؤلفها مجهول، وتشكل الملحمة نقطة بارزة في بداية الأدب الفرنسي، ومخطوط هذه الملحمة محفوظ بمكتبة البودليان بأكسفورد ببريطانيا.

٢- الكوميديا الإلهية لدانتي أليجييري:

عاش دانتي أليجييري (١٢٦٥-١٣٢١) في النصف الثاني من القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر، ولد في فلورنسا، فقد والدته وهو بعد في سن الطفولة، وفقد أباه عام ١٢٨٣ أحب فتاة اسمها بياتريشي وشعر بذلك الحب وهو في التاسعة من عمره، ولكنها تزوجت شاباً آخر، وتوفيت وهي في ريعان شبابها عام ١٢٩٠، وتزوج دانتي فتاة لم يبادلها الحب، انتخب دانتي عام ١٣٠٠ عضواً في مجلس المدينة ولأسباب سياسية حكم عليه بالنفي من فلورنسا.

كان دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) واسع الثقافة، دؤباً على القراءة والدرس، وكان متعدد المواهب، إذ كان يدرس ويعزف الموسيقى ويشغل بالسياسة، وتجمع شخصيته التناقضات، وامتاز بالكبرياء وعزة النفس، ولم يحرص على جمع المال، وكان يحب العزلة والوحدة.

أول عمل من أعمال دانتي هو «الحياة الجديدة» كتبه دانتي باللغة الإيطالية ويتحدث فيه عن حبيبته بياتريشي. ويتضمن هذا الكتاب مجموعة من الأشعار الغزلية، ألفه عام ١٢٩٤، وله عمل آخر بعنوان «الوليمة» (١٣٠٨) وهو أيضاً مجموعة من الأشعار يذكر فيه اسم حبيبته بياتريشي، وله كتب أخرى مثل كتاب «الملكية» وهو كتاب سياسي، وكتاب بعنوان «اللغة العامة» وهو عن تطور اللغة الإيطالية.

٣- تسميتها:

سمّاها محمد كرد علي «المهزلة الإلهية» أمّا قسطنطي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١) في كتابه «منهل الوارد في علم الانتقاد» في الجزء الثالث «الألعوبة الإلهية».

أمّا دانتي نفسه سماها «بالكوميديا» فقط^(١)، ويبدو أنّ دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) أعطى لعمله هذه التسمية لأنها ذات بداية أليمة ونهاية سعيدة، كما أنّ الكوميديا تنظم بلغة متواضعة خالية من الافتعال^(٢). وهي بذلك على عكس التراجيديات التي تتميز بنهايتها المفجعة، وكتب دانتي الكوميديا باللغة الإيطالية التي كانت في القرن الرابع عشر لغة محلية، إذا قيسَت باللاتينية التي كانت ما تزال تحتفظ بسمعتها ومكانتها ولا سيما في إيطاليا. وبذلك يعد دانتي أبا الأدب الإيطالي، ويبدو أنّ لكلمة الإلهية تفسيرين الأول أنها عمل رائع أو كامل، والتفسير الثاني أنّ مضمونها حول العقاب والثواب في العالم الآخر الذي يناله الأبرار ويلحق بالأسرار ولرؤية دانتي لله في «الكوميديا الإلهية».

٤- تاريخها:

هناك خلاف حول تاريخ «الكوميديا الإلهية»: وعلى الأغلب أن دانتي بدأ بنظمها عام ١٣١٣ واستمر في نظمها إلى وفاته عام ١٣٢١، وهناك من يرى أنه بدأ بنظمها عام ١٣٠٠ واستمر بنظمها ثمانية عشر عاماً أي انتهى من نظمها عام ١٣١٨.

٥- أقسامها:

تقسم الكوميديا إلى ثلاثة أقسام: الجحيم والمطهر والفردوس. وتتألف من مئة أنشودة أي كل من هذه الأقسام يتألف من ٣٣ أنشودة بالإضافة إلى مدخل للجحيم والمجموع مئة أنشودة، مجموع أبياتها ١٤٢٢٣ بيتاً. والكوميديا رحلة خيالية إلى العالم الآخر. استغرقت سبعة أيام بقي دانتي في الجحيم يوماً واحداً وفي المطهر خمسة أيام وفي الفردوس يوماً واحداً. وهناك سؤال لماذا خصص دانتي للمطهر خمسة أيام وللجحيم والفردوس فقط يومين؟

وهناك مدخل للجحيم وهو ينقسم إلى جحيم عليا وجحيم دنيا. يتعذب في الجحيم العليا من ارتكب خطايا خفيفة تحت تأثير بعض الظروف، أما في الجحيم الدنيا يتعذب من كانت نفوسهم شريرة وفاسدة بطبيعتها «تمثل الجحيم الشباب الحر الطليق المتكبر الثائر»^(٤).

٦- وأما المطهر:

فهو للنفوس التواقاة للتوبة والتفكير والأمل بالخلاص، قاد فرجيل (٧٠-١٩ ق.م) الشاعر الروماني الذي نظم ملحمة الإنبياء دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) إلى الجحيم، ويلتقي دانتي بناس لم يفعلوا في حياتهم خيراً ولا شراً، ولذلك لم تقبلهم السماء ويحтар الجحيم بهم، ويجد في الجحيم عظماء العالم مثل هوميروس

الإغريقي الذي نظم ملحمتي «الإلياذة» و«الأوديسة» وهوراس وأوفيد (٣٤٣ق.م- ١٧ب.م) الشاعر الروماني الذي نظم قصيدة «تغيرات» ويلقي أبطال الإلياذة مثل هكتور الطروادي والكيرا الإغريقية ابنة أغاممنون وإليس ويجد هناك سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) من الفلاسفة الإغريق وابن سينا وابن رشد من الفلاسفة العرب.

ويجد هناك شخصيات تاريخية مثل كليوباترا (٦٩-٣٠ ق.م) وسميراميس وشخصيات أخرى مثل أخيل بطل اليونان وباريس بطل الطرواد ابن بريام. ويلقي دانتي في الأنشودة السابعة بالبعلاء، والمبشرين وسريعي الغضب والكسالى.

وكذلك يجد في الجحيم من حرضوا على الحروب وقادوها مثل ألكسندر المكدوني (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) ومن أقدموا على الانتحار والمرابين ومن أغوا النساء، ومن قبلوا الرشوة، والمنافقين واللصوص ومن أثاروا الفتن الدينية والسياسية، ومن عملوا بتزوير النقود، ومن خانوا الأهل والوطن والأصدقاء.

ويترك فرجيل دانتي في الأنشودة الثلاثين أي قبيل نهاية رحلة دانتي في المطهر لأنه لا يحق لفرجيل دخول الجنة لأنه وثني، يجتمع في المطهر من ارتكب خطيئة الحسد والغضب، والذين تباطؤوا في فعل الخير، والبعلاء والمبشرين، الذين يكون للتكفير عن خطاياهم، ويجد من ارتكبوا خطيئة الزنى.

٧- الفردوس:

الأرض برأي دانتي هي مركز العالم وهي محاطة بغلاف جوي، وبعده دائرة من النار، وتدور حول الأرض تسع سماوات:

- ١- السماء الأولى وهي القمر - ويوجد فيها الملائكة والرسل.
- ٢- السماء الثانية وهي سماء عطار د- يوجد فيها من قاموا بأعمال مجيدة.
- ٣- السماء الثالثة وهي سماء الزهرة - تظهر فيها أرواح العاشقين.
- ٤- السماء الرابعة وهي سماء الشمس - تظهر فيها أرواح محبي الحكمة.

المصادر والإحالات

- (١) حسن عثمان، مقدمة لترجمة الكوميديا الإلهية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ص ١٦.
- (٢) الياس سعد غالي، رسالة الغفران و الكوميديا الإلهية في لمحات تاريخية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨، ص ٤٢.
- (٣) الدكتور محمد عبد السلام كفاي، في الأدب المقارن، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢، ص ١٨١.
- (٤) حسن عثمان، مقدمة لترجمة الكوميديا الإلهية، مصدر سابق، ص ٦٣.
- (٥) د.حسام الخطيب، جوانب من الأدب والنقد في الغرب، الطبعة السادسة، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٦، ص ٨٣.
- (٦) د.صلاح فضل، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية، لدانتي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
- (٧) أحمد أمين، قصة الأدب في العالم في ثلاثة أجزاء، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٣٥٣.
- (٨) د.عماد حاتم، مدخل إلى تاريخ الآداب الأوربية، طرابلس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص ١٠٣.

صلاح فضل قد ألف كتاباً كبيراً يقع في أربعمئة صفحة بعنوان «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتى»^(١).

ولقد اعتقد بهذه الفكرة قسطنطين الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١) في كتابه «منهل الوارد في علم الانتقاد» في الجزء الثالث منه ، وأكد على هذه الفكرة الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» الذي صدر لأول مرة عام ١٩٥٣ وكذلك الدكتور محمد عبد السلام كفاقي في كتابه «في الأدب المقارن» الذي صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٧٢ قد تناول تأثر دانتى «برسالة الغفران» لأبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧) إلا أن إلياس سعد غالي في كتابه «رسالة الغفران و الكوميديا الإلهية» يرى أن التأثير شبه معدوم.

تقوم رسالة الغفران (١٠٣٢م) على الرحلة إلى العالم الآخر، ويرى سليمان البستاني الذي ترجم ملحة «الإبادة» لهوميروس شعراً عام ١٩٠٤، أن رسالة الغفران تنتمي لجنس الملحمة، إذ يصعد ابن القارح إلى الجنة، وحصل ابن القارح على صك الغفران لكنه أضاعه، ويرى ابن القارح عم الرسول حمزة ويطلب منه المساعدة إلا أن حمزة لا يستطيع مساعدته فيحمله إلى علي بن أبي طالب، الذي بدوره يحمله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فتساعده فاطمة الزهراء، التي ترسل لمساعدة ابن القارح جارية من جواربها، وينمى ابن القارح أن يحصل على فتاة فيشق ثقاً، فتنبثق منها حورية هيفاء، ويرغب لو أن لردفها أكثر امتلاءً، وتلبى رغبته أكثر مما يريد. وهنا تظهر سخرية المعري من المناققين الذين يرون في الجنة جنساً ونساءً. لم يصعد أبو العلاء إلى الجنة ولكنه أصد ابن القارح، والمعري يسخر من شهوتي الطعام والجنس، وهو نفسه كان نباتياً ورفض الزواج، أي إنه استطاع قهر هاتين الشهوتين. وهو لا يطلب من الآخرين أن يحذوا حذوه.

ويرى المستشرق بلاسيوس أن مشهد مقابلة ابن القارح لعمدونة الحليبة التي طلبها زوجها لرائحة فمها الكريهة، فكافأها الله لصبرها فجعلها إحدى حوريات الجنة، يشبه بعض مشاهد «الكوميديا الإلهية» لدانتى.

٥- السماء الخامسة وهي سماء المريخ - تظهر فيها أرواح المجاهدين في سبيل الله.

٦- السماء السادسة وهي سماء المشتري - تظهر فيها أرواح العادلين.

٧- السماء السابعة وهي سماء زحل - تظهر فيها أرواح المتأملين في الله.

٨- السماء الثامنة وهي سماء النجوم الثابتة - وفيها الملائكة، الذين يعدون صورة للحكمة الإلهية.

٩- السماء التاسعة وهي مكان الاجتماع لكل الملائكة - ويشرف عليها الملائكة الذين يعدون صورة للمحبة الإلهية.

١٠- سماء السماوات وهي مقر الله والقديسين.

ويذكر دانتي (١٢٦٥-١٣٢١) في «الكوميديا الإلهية» اسم محبوبته بياتريتش، التي لم يقم معها علاقة حب، فإراها في مركبة تحف بها الملائكة، الذين ينشدون الأغاني وينثرون الأزهار، وترتدي ثوباً يزدان بالألوان الثلاثة، الأحمر، والأبيض والأخضر، ويكلل هامتها تاج من أوراق الزيتون، وهي رمز السلام، وينسدل على وجهها نقاب ناصع البياض ولا بأس من الإشارة إلى أن «الكوميديا الإلهية» جاءت بضمير المتكلم، وتنادي بالمحبة للناس أجمعين والله سبحانه تعالى، وللتضحية في سبيل الآخرين والابتعاد عن الأنانية والشروع والشهوات، لأن العقاب شديد، ويدعو دانتي في «الكوميديا الإلهية» إلى التواضع والابتعاد عن الغطرسة والكبرياء كما يدعو إلى النظر إلى الحياة الدنيا على أنها فانية وجسر إلى الحياة الثانية.

٨- تأثير الثقافة العربية في «الكوميديا الإلهية»:

يرى الدكتور حسام الخطيب أن «الكوميديا الإلهية» تأثرت بالأفكار العربية الإسلامية تأثراً واضحاً ولا سيما بأدب المعراج وبالمؤلفات العربية الأخرى التي تتناول موضوع الرحلة إلى العالم العلوي^(٥). وكان الدكتور

الأدب في عصر النهضة

مُقَدِّمَةٌ

- العوامل التي ساعدت على النهضة:

- ١ - قام محمد الفاتح (١٤٢٩-١٤٨١) بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣، ونتج عن ذلك هجرة العلماء إلى الغرب، وبدأت أوروبا تتحسس بالخطر الذي يهددها من المشرق إذ تعززت دعائم الدولة العثمانية التي لم تكتف بفتح القسطنطينية والتوسع غرباً، بل دخلت جيوش السلطان سليم الأول سوريا بعد معركة مرج دابق قرب حلب عام ١٥١٦ ومصر عام ١٥١٧ ودخلت العراق زمن السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٤.
- ٢ - استطاع كريستوف كولومبس في هذه الفترة اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢، مما قدّم إمكانية لاكتشافات جغرافية هامة جداً، واستطاع في العام ذاته سكان إسبانيا الانتصار على العرب في بلاد الأندلس، وسقطت غرناطة آخر مدينة للعرب ورحل العرب عن الأندلس في ذلك العام. وجاء نيوتن فكشف عن قانون الجاذبية، وعرف العلم حقيقة جسم الإنسان، ونادى المفكرون بحقوق الإنسان في التفكير الحر والتعبير عن أفكاره.
- ٣ - قامت حركات الإصلاح الديني منها حركة الألمانيّ مارتن لوثر ١٤٨٣-١٥٤٦ الذي ترجم الإنجيل إلى اللغة الألمانية، وكان الألمان حتى زمان مارتن لوثر لا يعرفون الإنجيل إلا عن طريق اللغة اللاتينية، لأنّ الإنجيل لم يكن مترجماً إلى اللغة الألمانية.
- ٤ - أحدثت الجامعات مثل جامعة باريس، وأكسفورد، وكامبردج التي تأسست في القرن الثالث عشر.

٥ - ظهرت الطباعة على يد غوتنبرغ عام ١٤٥٣، وهذا يعني القدرة على إنتاج أعداد هائلة من النسخ، لا تحصى، وبالتالي وصول الكتاب إلى أكبر عدد ممكن من القراء، ويعد ظهور المطبعة ثورة كبرى، وكان الإنجيل أول كتاب يطبع عام ١٤٥٥، أدباء كبار من أمثال بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤)، وظهر وازدهرت في هذه الفترة الفنون، وأهم رسامي تلك المرحلة ليوناردا دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) وكان رساماً عظيماً وكيميائياً كبيراً.

٦ - تميز عصر النهضة بنمو الشعور القومي، ولقد عبّر مكيافيلي في كتابه «الأمير» الذي وضعه عام ١٥١٢ عن التوجه السياسي الجديد.

وليم شكسبير

(١٥٦٤-١٦١٦)

١ - نبذة عن حياة شكسبير:

وهو من أكبر وأهم الشعراء في العالم وأكثرهم شهرة. ولد الشاعر والمسرحي الإنكليزي شكسبير في الثالث والعشرين من نيسان عام ١٥٦٤م في بلدة ستراتفورد، حيث كان والده بائع قفازات، وكان يقوم ببيع العجول بنفسه للحصول على الجلود لصنع القفازات. وتزوج شكسبير عام ١٥٨٢ عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره من سيدة تكبره بثمانية أعوام. وبعد زواجه بخمسة أشهر أنجبت زوجته ابنة له سماها سوزانا عام ١٥٨٣، وأنجبت توأمين عام ١٥٨٥ وهما جوديت وهامنت الذي توفي عام ١٥٩٦ في الحادية عشرة من عمره. وبدأ يعمل في إحدى الفرق المسرحية، وبدأ حياته المسرحية ممثلاً ثانوياً، واستطاع الحصول على الشهرة بفضل قصائده، وأسس عام ١٥٩٤ فرقة مسرحية وقام فيها بدور الممثل والكاتب والشريك في ملكية المسرح. واشترى عام ١٦٠٢ قطعة أرض في بلدته ستراتفورد، وحصل على أجمل دار في بلدته. وحصل من الملكة على لقب جنلمان. ويرى معظم النقاد أنه كان يلم ببعض اللغات الأوروبية مثل اللاتينية واليونانية والفرنسية، وتدل مسرحياته أنه على معرفة جيدة بالتاريخ، وأنه استطاع الحصول على ثقافة واسعة، على الرغم من أنه لم يكن مخلصاً لزوجته،

وكان يتعاطى شرب الخمر، ولم يعثر النقاد على مخطوطات مسرحياته، كتب شكسبير سبعا وثلاثين مسرحية، برع في كتابة المآسي، إلا أن ملاهي شكسبير لا نقل شأنًا عن مآسيه، توفي والده عام ١٦٠٢، ووالدته عام ١٦٠٨، وعاد إلى بلدته عام ١٦١٢، وعاش فيها السنوات الأربع الأخيرة من عمره، إذ توفي عام ١٦١٦، في اليوم ذاته الذي ولد فيه، أي في الثالث والعشرين من نيسان، بعد أن بلغ الثانية والخمسين من عمره، ودفن جثمانه تحت هيكل كنيسة بلدة ستراتفورد، التي كانت آنذاك تمزقها النزعات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، ونقشت على قبره أبيات من شعره يطلب فيها عدم نبش قبره.

لقد أوصى شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) بعدم نبش قبره، ودفن جثمانه في كنيسة، ولكنه لم يوص بعدم دراسة أدبه، والبحث عن أسرار الدفينة في مسرحياته الخالدة. يموت العظماء ويتركون لنا أعمالهم الخالدة التي نرى ضرورة دراستها لمعرفة بعض أسرارها، ولمحاولة حل بعض طلاسمها، ولتحديد ميزاتها. يرى الدكتور حسام الخطيب أن مآسي شكسبير الكبرى تشترك بميزات أهمها:

«تصور المأساة شخصية عظيمة وقعت في موقف صعب...»^(١) ويتابع د. الخطيب فيرى أن شكسبير يعنى بتأكيد فكرة استمرار الحياة على الرغم من النهاية المأساوية لأبطاله، كما تجمع المسرحيات بين قوة الحكمة، وعمق الفكرة، بحيث تجتذب جماهير من مستويات متفاوتة الذكاء والثقافة، ويدور الصراع في مسرحياته بين العقل والعاطفة، والإخلاص والخيانة...^(٢).

ولقد حقق شكسبير نجاحاً كبيراً بسبب موهبته الفريدة، وتجربته إذ كان، كما قلنا، ممثلاً وكان مشاركاً في ملكية المسرح، ولذلك راعى الناحية التجارية، ونوق الجمهور وكان يعرف إمكانيات المسرح التقنية في عصره، فلم تكن آنذاك إمكانيات الإضاءة المتوافرة الآن، ولم تكن مكبرات الصوت التي تستخدم في الوقت الحاضر موجودة آنذاك. ولعل من أهم ميزات الحكمة المسرحية عند شكسبير أنها تدور حول فكرة الانتقام. يقدم أحد الأشخاص على ارتكاب الشر والخطأ. ويقوم شخص آخر بالثأر والانتقام، وبذلك تتكون المسرحية من سلسلة أحداث شر ينتج عنها شر آخر.

ومن بين ميزات شكسبير تلك الميزة التي أشار إليها خليل مطران (١٨٦٩-١٩٤٩) إذ يقول خليل مطران في مقدمة ترجمته لهاملت (١٦٠١) «إن في نفس شكسبير شيئاً عربياً بلا منازعة وهو أبين فيها مما بان في نفس فيكتور هيجو... وبه مثل ما بنا من الهيام في المبالغة التي لا يقبلها من الكتاب ولا يعقلها من القراء إلا الذين في تصورهم حدة وجماح كما يكون عادة عند الشرقيين وخصوصاً عند العرب، وعلى الجملة، ففي كل ما يكتبه شكسبير شيء من روح البداوة قوامه الرجوع الدائم إلى الفطرة الحرة»^(٣).

- من أهم أعمال شكسبير:

- ١- روميو وجولييت ١٥٩٥
- ٢- يوليوس قيصر ١٥٩٩
- ٣- تاجر البندقية ١٦٠٠
- ٤- هاملت ١٦٠١
- ٥- عطيل ١٦٠٤
- ٦- الملك لير ١٦٠٥
- ٧- أنطونيو وكليوباترا ١٦٠٧
- ٨- مأساة «ماكبث» ١٦٠٦

٢ - «روميو وجولييت» ١٥٩٥:

هذه المأساة نشيد للحب الصادق، الذي يتجاوز حدود الخلافات العائلية، لا بل يكون سبباً في الوصول إلى السلام والوفاق بين قلوب أبناء العائلتين المتخاصمتين. تجري الأحداث في مدينة فيرونا في إيطاليا، ويشبه موضوع المأساة إلى حد ما موضوع قصة قيس وليلى في الأدب العربي، حيث الحب القوي، ورفض الأب زواج ابنته من قيس، ورغبة شخص آخر في الزواج منها، إلا أنها تخلص لقيس.

شخصيات المسرحية:

- كابوليت ومونتاغو : شيخان لأسرتين متعاديتين.
السيدة كابوليت : زوجة كابوليت وأم جوليت.
جوليت : ابنة كابوليت لم تكمل الرابعة عشرة، وهي وحيدة.
روميو : ابن مونتاغو.
بارس : فتى يرغب طلب يد جوليت.
تيبالت : ابن أخي السيدة كابوليت. أي ابن خال جوليت.
بنغوليو : ابن أخي مونتاغو، وابن عم روميو.
مركوشيو : صديق روميو.

تُحب جوليت روميو دون أن تعرفه في حفلة راقصة، وأخذ يتسلل إلى حديقة منزلها وكان يحب سابقاً فتاة اسمها روزالين ويطلب من الأب لورنس أن يعقد قرانه على جوليت، وعن طريق المربية يتفق روميو مع جوليت على اللقاء في غرفة الأب لورنس من أجل عقد القران، ومات مركوشيو صديق روميو في أثناء مبارزة بالسيوف مع تيبالت أحد أقارب السيدة كابوليت وبالتحديد ابن أخيها ويقتله روميو أي يقتل تيبالت في أثناء مبارزة على أثر مقتل مركوشيو.
ويحكم الأمير على روميو بالنفي من فيرونا لأنه قاتل ابن خال جوليت.
ويتمنى والدا جوليت زواجها من بارس، وحددا موعداً لزفافها من بارس، ولكن روميو يتردد إليها ليلاً، يظن الوالدان أن ابنتهما تبكي على ابن خالها وأنها تبكي أكثر لأن روميو ما زال حياً ولا يعرفان أنها تبكي بسبب شدة حبها لروميو.
وتعد الوالدة ابنتها بالثأر، ولكن جوليت تصرح لأمها بأنها تحب روميو.
وعندما تشرح الوضع للأب لورنس، يقدم لها زجاجة شراب منوم، ويقول لها إنها عندما تتناول الشراب ستظهر وكأنها ميتة حقاً إذ تتوقف أعضاؤها عن الحركة وذلك لمدة اثنتين وأربعين ساعة، وستدفن في مدافن عائلتها وبعد ذلك تستيقظ وكأنها في نوم، ويأتي إليها روميو ويأخذها معه إلى منفاه. وبذلك تتخلص من مشكلتها.

وتتناول جوليبيت الشراب المنوم ويظن أهلها أنها ماتت وتدفن. ويذهب روميو إلى مدفن جوليبيت إذ عرف من أحد الخدم بموتها، قبل أن يلتقي الأب لورنس، الذي أرسل له رسالة إلا أنها لم تصله، وهناك في المدفن ليلاً يجد بارس ويتقاتلان بالسيوف، فيقتل روميو بارس الذي بدأ المبارزة رغم أن روميو رفضها في البداية وحاول التخلص منها.

ويبتلع روميو سماً كان قد أحضره معه وفي هذه اللحظة يأتي الأب لورنس، وتستيقظ جوليبيت ويطلب منها الأب أن تهرب إلى دير للراهبات ولكنها تحاول تناول السم الذي تناوله روميو، ولكن في الزجاجة لم يبق منه شيء. فتطعن نفسها بخنجر روميو.

ويتصالح والد روميو مع والد جوليبيت ولكن بعد موت روميو وجوليبيت. وتتصالح العائلتان. وكان عدد الذين قتلوا بسبب هذه الخلافات ثلاثة هم مركوشيو، قتله تيبالت ابن خال جوليبيت، الذي بدوره قتل على يد روميو، وبارس الذي قتله روميو بالمدفن، وانتحر روميو إذ شرب زجاجة السم، وانتحرت جوليبيت بخنجر روميو، عندما استيقظت من نومها فوجدت روميو منتحراً بالسم، ويقول مونتاجو والد روميو في نهاية المأساة لوالد جوليبيت:

«مونتاجو: إنما أنا عندي الكثير لك، سأنصب تمثالاً من الذهب الخالص لابنتك، طالما بقيت فيرونا معروفة باسمها لن تكون صورة أبهى من صورة جوليبيت الصديقة الأمينة...»^(٤).

ويجيب كابوليت:

«وأريد أن يكون روميو بجانب زوجه، وفي نفس الأبهة: ضحيتان شقيتان لما كنا فيه من العدا»^(٥) ويختتم أمير فيرونا المأساة بالكلمات التالية: «ما من مغامرة أشد ألماً من مغامرة روميو وجوليبيت»^(٦).

٣ - مأساة «يوليوس قيصر» (١٥٩٨-١٥٩٩):

استمد شكسبير موضوع مسرحيته من سيرة حياة يوليوس قيصر (١٠٠

ق.م-٤٤ق.م) المذكورة في كتاب «تاريخ حياة النبلاء اليونانيين والرومانيين»، الذي وضعه بلوتارك.

حكم يوليوس قيصر روما مدة سنتين ما بين عامي (٤٦-٤٤ ق.م) وتكثفت مجموعة من المعارضة ضده بزعامة كاسيوس، الذي كان يشعر بالغيرة من يوليوس قيصر، والذي يكره طموح قيصر، والذي غضب لتعاظم سلطة يوليوس قيصر، فهو يعرفه عن قرب، فلقد أُنقذ كاسيوس في إحدى المرات من الغرق، وأشرف عليه عندما أصيب بمرض الحمى في إسبانيا، واستطاع كاسيوس إقناع بروتوس للوقوف ضد يوليوس قيصر (١٠٠ ق.م-٤٤ ق.م) لأن الأخير ديكتاتور، فوافق بروتوس لأنه ظن أن خلاص روما في التخلص من ديكتاتورية يوليوس قيصر (١٠٠ ق.م-٤٤ ق.م)، ووقف ستون عضواً من مجلس الشيوخ ضد يوليوس قيصر. وتنفقوا على اغتياله يوم ١٥ آذار عام ٤٤ ق.م بخناجر كانت مخفية بين ثيابهم.

تبدأ المأساة باحتفالات يوليوس قيصر بانتصاراته في حروبه، إلا أن أعداءه لا يرغبون في إقامة هذه الاحتفالات، وكان كاسيوس هو المحرض الأول ضد يوليوس قيصر ويخبر العراف يوليوس قيصر بضرورة التزام الحذر يوم ١٥ آذار لأنه سيحدث له شر ولكنه لا يكثرث. وتضطرب الطبيعة ليلة الرابع عشر من آذار، وتتشق القبور وتسير الأشباح، وتبدو أنوار غريبة في السماء.

وكان كاسيوس بحاجة إلى بروتوس لأن الأخير محبوب من قبل الشعب، وكان كاسيوس قد شارك في الحروب التي خاضها يوليوس قيصر ويعرف نقاط ضعفه ويرى أنه لا يستحق هذه العظمة كلها، ويقترح كاسيوس قتل أنطوني لأنه صديق يوليوس قيصر فيعترض بروتوس لأن أنطوني بلا يوليوس قيصر لا يشكل خطراً. ورفض بروتوس قتل مارك أنطوني، لأنه لا يريد سفك الكثير من الدماء.

ويتردد يوليوس قيصر في الذهاب إلى مجلس الشيوخ بسبب الكابوس الذي رآته زوجته في حلمها إذ رأت دماء تنهمر من تمثاله والرومان يضعون أيديهم بدمه ونشوة السعادة تغمرهم، ولكن أحد أعدائه وهو ديوسيوس يقنعه أن تفسير الحلم أن قوته سترداد.

يقول يوليوس قيصر عن الكابوس الذي رآته زوجته كالبورنيا «حملت هذه الليلة كأنّ تمثالي نافورة له منه عين، يتدفق منها دم صافٍ نقي، أقبل جماعة من الرومانيين ضاحكين مرحين يغمسون أيديهم فيه، فاعتبرت ذلك المنظر نظير شؤم وشيك الوقوع»^(٧).

ويتسلم يوليوس قيصر رسالة وهو في طريقه إلى مجلس الشيوخ يحذره فيها أحد أصدقائه من المؤامرة ضده، إلا أنه لم يقرأ الرسالة كما يحذره العراف دون جدوى. وبدأ أعداؤه يطلبون منه طلبات، فلا يوافق عليها، فهو لا يغير قراراته بهذه السهولة.

ويقتل يوليوس قيصر، يشارك كثيرون في قتله، ورمى يوليوس قيصر نفسه على بروتوس وهو جريح فما كان من بروتوس إلا أن طعنه فقال يوليوس قيصر كلمته الشهيرة: «حتى أنت يا بروتوس!» إذ لم يكن يتوقع أن يخونه بروتوس. ويتظاهر أنطوني أنه مع القتلة في حين أنه كان يحرض الشعب ضدهم، ويلقي بروتوس كلمة يبين فيها أنه قتل يوليوس قيصر لمصلحة روما، لأنه يحب روما أكثر من حبه لقيصر، ويبين بروتوس أنه كان يحب يوليوس قيصر ويحترمه لشجاعته، وأنه قتله لاستبداده، وأن مصلحة روما تطلبت ذلك. فوقف الشعب إلى جانبه. ويلقي بعد ذلك أنطوني كلمة يعبر فيها عن محبته ليوليوس قيصر، الذي مازال دمه ساخناً، ويلقي كلمته أمام الشعب الذي أيد قبل قليل بروتوس، واستطاع بكلمته نقل الشعب من التأييد لقتل يوليوس قيصر إلى مرحلة التنديد بمقتله والثورة على القتلة والانتقام لدم يوليوس قيصر. ويذكر أنطوني أن يوليوس قيصر استطاع أن يأتي بالكثير من الأسرى الأعداء واقتادهم بالمال حتى امتلأت خزائن الدولة

بالمال. وكان يوليوس قيصر رحيماً مع الفقراء، ورفض تاج الملك ثلاث مرات. ورأى أنطونيوس أن يوليوس قيصر مات مظلوماً، فهو كان ينبغي توزيع المعونات المالية على أفراد الشعب، فيقف إلى جانبه الشعب أيضاً، فيهرب بروتوس وكاسيوس من روما بسبب ثورة الشعب ضدهم، فتنتحر زوجة بروتوس إذ تبذل الجمر، واسمها بورشيا.

ويحكم روما ثلاثة هم مارك أنطوني وأكتافيوس (أغسطس) ابن أخي قيصر وليبيدوس ويشن أوكتافيوس (أغسطس) وأنطوني حرباً ضد كاسيوس وبروتوس. ويخسر كاسيوس المعركة ويطلب من أحد أصدقائه أن يطعنه بالسيف ذاته الذي قتل به يوليوس قيصر. ويموت ويظهر شبح يوليوس قيصر لبروتوس، ويفهم الأخير أن أجله قد دنا، ويطلب من خادمه أن يحمل سيفه كي يلقي بروتوس نفسه على السيف ويموت، وتمت هذه المعركة بعد مرور عامين على مقتل يوليوس قيصر أي عام ٤٢ قبل الميلاد.

إنها مأساة تاريخية، وتعكس تيارين الأول يريد الحرية والثاني يريد عظمة روما وقوتها، ويجسد الأول كاسيوس وبروتوس، شخصية بروتوس تختلف عن شخصية كاسيوس، لأن كاسيوس يريد قتل يوليوس لأسباب أنانية وشخصية، في حين وافق بروتوس على الاعتقال بدافع حماية مصالح روما. ويجسد التيار الثاني يوليوس قيصر، وكان التياران متكافئين تقريباً إلا أن النصر في نهاية الأمر كان لاتباع يوليوس قيصر الذي يرى كثير من المؤرخين أنه كان يمثل الديكتاتورية والفردية في الحكم على الرغم من انتصاراته في حروبه التي ساعدت على تكوين عظمة روما في القرن الأول قبل الميلاد.

٤ - مأساة «أنطونيوس وكليوباترا ١٦٠٧»:

كتب عن هذا الموضوع المسرحي الانكليزي برناردشو، ونظم أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) مسرحية شعرية بعنوان «مصرع كليوباترا» أراد أن يصور بها كليوباترا (٦٩-٣٠ ق.م) بطلة مصرية، ونظم بوشكين عن كليوباترا قصيدة شعرية

بمعنوان «الليالي المصرية». وكانت كليوباترا قد حكمت مصر مدة واحد وعشرين عاماً، أي منذ عام ٥١ ق.م. إلى يوم انتحارها.

وتأتي هذه المأساة لشكسبير تكملة لمأساة «يوليوس قيصر» (١٥٩٩)، واستمد شكسبير موضوعها من المصدر التاريخي نفسه، الذي استمد منه موضوع مأساة «يوليوس قيصر»، وهو كتاب «تاريخ حياة النبلاء اليونانيين والرومانيين» الذي وضعه بلوتارك، وقامت بين كليوباترا وأنطونيو علاقة حب، وتجري الأحداث في كل من روما والإسكندرية حيث كانت تقيم كليوباترا (٦٩-٣٠ ق.م)، وسوريا، ويأتي رسول من روما ويبلغ أنطونيو أن زوجته واسمها فولفيا قد توفيت، ويقرر أنطونيو الرحيل إلى روما، بسبب وفاة زوجته فولفيا، ولأن بومبي حاكم جزيرة صقلية وسردينيا أخذ يتمرد على قيصر روما، الذي تصله أخبار عن أنطونيو أنه يقضي وقته في الحب وصيد السمك وشرب الخمر، ويصل أنطونيو إلى روما ويتزوج أوكتافيا أخت القيصر، وتعلم كليوباترا المعروفة بثقافتها ونكايتها وجمالها بزواج أنطونيو وتخزن كثيراً، وقبل أن يعود إلى مصر مع زوجته أوكتافيا يقرر أنطونيو إيفاد أوكتافيا من اليونان (أثينا) لتصلح بينه وبين أختها القيصر، إذ حدث سوء تفاهم بينهما، وبعد رحيل أوكتافيا تصل أخبار إلى القيصر بأن أنطونيو يحشد جيوشاً في مصر مع كليوباترا ضد القيصر، وتتشب الحرب بينهما وينتصر قيصر في الحرب ويطلب أنطونيو من أحد أتباعه واسمه (إيروس) أن يقتله، إلا أن الخادم إيروس طلب منه أن يدير وجهه، فقتل نفسه بدلاً من أن يقتل أنطونيو، وبعد ذلك قام أنطونيو وطعن نفسه، ولكنه لم يمت ويطلب من أتباعه وهو جريح أن يحملوه إلى ضريح كليوباترا حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة هناك بقرب كليوباترا، التي تطلب من مهرج أن يجلب لها أفعى سامة واسمها أفعى النيل التي تقتل بلا ألم، وتموت بعد أن تلدغها الأفعى، إذ لم يسمح لها أتباعها بالانتحار بالخنجر، ويقرر قيصر دفن كليوباترا وأنطونيو في مدفن واحد، وينظر إلى جثمانهما ويقول: «ولكن كليوباترا تبدو نائمة كأنها تود اصطيداً أنطونيوس آخر في شباك فتنتها الفاتكة»^(٨).

٥- كوميديا «تاجر البندقية» (١٦٠٠م):

شخصيات الكوميديا:

- ١- أنطونيو: تاجر البندقية
- ٢- باساتيو: صديق أنطونيو
- ٣- شايوك: مرابي يهودي
- ٤- جسيكا: ابنة المرابي اليهودي
- ٥- لورنزو: حبيب جسيكا
- ٦- برسيا: فتاة يطلب بها باسانيو
- ٧- نرسيا: صديقة برسيا

يحبُ باسانيو برسيا ويطلب من صديقه أنطونيو نقوداً من أجل التقدم لطلب يد برسيا، ولكن نقود أنطونيو كلها تحت رحمة البحر إذ أرسل سفنه للتجارة فطلب أنطونيو من باسانيو أن يقترض في البندقية مالا وهو سيكفله.

يطلب باسانيو من اليهودي شايوك ثلاثة آلاف دقي لمدة ثلاثة أشهر، وطلب اليهودي توقيع الصك من قبل أنطونيو وفي حال عدم الوفاء فإنه سيقطع رطلاً من لحمه في أي مكان من جسده، لأن أنطونيو كان قد احتقر اليهودي شايوك سابقاً.

ولدى اليهودي ابنة اسمها جسيكا تحبُ فتى اسمه لورنزو ومستعدة للهرب معه ومعها نقود أبيها، وهربت ابنة اليهودي مع حبيبها بعد أن سرقت أياها، فلقد سرقت الماستين وأخذ أبوها يصيح ويبكي.

ولقد ترك والد برسيا ثلاثة صناديق، الصندوق الأول ذهبي، والآخر فضي، والثالث رصاصي، يوجد في أحد الصناديق رسمها، ومن يعثر على رسمها يتزوجها، وترى صديقة برسيا واسمها نرسيا أن الفقر مثل الغنى كلاهما يتعب الإنسان، وفتح أمير مراکش الصندوق الذهبي فوجد فيه هيكل ميت، وورقة كتب عليها بعض أبيات الشعر.

والأمير الآخر الذي أراد أن يحصل على برسيا هو أمير أراغون الذي يفتح أحد الصناديق، ويجد فيه رأس أبله وأبيات شعر.

والشروط الثلاثة في فتح أحد الصناديق:

١- لا يخبر أحداً بالصندوق الذي يقع عليه الاختيار.

٢- إذا لم يجد رسمها يمتنع بعد ذلك عن الزواج بغيرها.

٣- لا يعترض على قدره، ويعود أدراجه مباشرة.

ويعرق مركب أنطونيو في عرض البحر، ويفتح باسانيو الصندوق الرصاصي فيجد رسم برسيا وأبيات شعر. وفي يوم عرسه تصله رسالة من أنطونيو ويخبره فيها أن اليهودي يطلب حياته وتقدم له برسيا المساعدة المالية.

لا يوافق الدوق على هذا القضاء وتدخل نرسيا وبرسيا في زي عالم حقوقي، ومن قبل العلامة في الحقوق ويرفض شاليوك ثلاثة أضعاف المبلغ لأنه كما يقول أدى القسم. وأراد أن يقطع رطلاً من لحم أنطونيو من أقرب نقطة من قلبه، ولكن القاضي حذره أن عليه أن يقطع رطلاً بالتحديد لا أكثر ولا أقل، دون أن تسيل نقطة دم واحدة، لأنه بموجب الصك يجب اقتطاع رطل، وفي حال مخالفة نص الصك فإن المرابي سيقتل وستصادر أمواله، ويوافق المرابي آنذاك على الحصول على ثلاثة أضعاف المبلغ الذي أقرضه، إلا أن القاضي يرفض، ويوافق شاليوك على استرجاع المبلغ دون زيادة، إلا أن القاضي لم يوافق أيضاً لأن المرابي اتبع وسائل منحرفة، ويرى القاضي أن أموال المرابي يجب أن تعود للدولة.

ويعطي شاليوك أمواله كلها لابنته وزوجها، وتطلب برسيا التي تمثل دور القاضي، من باسانيو خانماً، فرفض في البداية لأن زوجته أهدته إياه، ووافق على ذلك عندما طلب منه أنطونيو، وعندما عاد إلى البيت كانت برسيا التي مثلت دور القاضي قد سبقته إليه، وطالبت بالخاتم، فقال لها إنه أهداه للقاضي.

وتقول برسيا لبسانيو عن الخاتم:

«برسيا: وأنت لو علمت قيمة ذلك الخاتم... ولو أدركت أن شرك مرربط بالأ تتخلى عنه... وأنا الآن على ثقة من أن الخاتم إنما أهدي إلى امرأة...»^(١) ويجيبها لبسانيو: «لبسانيو: لا يا سيدتي، أقسم بشرفي، وبحياتي إن الذي أخذ الخاتم ليس امرأة، بل عالم حقوق...»^(١٠). وكما نعلم بأن عالم الحقوق هذا لم يكن إلا برسيا نفسها، التي أعادت إليه الخاتم وطلبت منه المحافظة عليه.

تدعو كوميديا «تاجر البندقية» (١٦٠٠) الناس إلى الصدق والإخلاص والأخلاق الرفيعة، والمحبة التي يجسدها أنطونيو وبسانيو وبرسيا، وكما تدعو الكوميديا الآخرين الابتعاد عن الجشع والطمع، والربا والحقذ التي يجسدها شايلوك. ولكن شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) المسرحي العبقري، لم يصور لنا شخصية شايلوك تصويراً بسيطاً، فشايلوك حقود لأن أنطونيو كان قد احتقره، والشخصية الرئيسية هنا هي شخصية أنطونيو، الذي وافق على توقيع صك يقضي باقتطاع رطل من لحمه من أجل تلبية طلب صديقه بسانيو، فهو يتقانى في صداقته.

٦ - «هاملت» (١٦٠٠):

تجري الأحداث في الدانمارك في القرن الرابع عشر، إذ يرى حراس القصر طيفاً في منتصف الليل، وهو طيف الملك الذي قتله أخوه، إذ وضع سماً في أنفه وهو نائم، ولكن الناس يظنون أن أفعى لسعته، وكان الملك المقتول قد تبارز مع ملك النرويج، وقتله في أثناء المباراة، إلا أن ابن ملك النرويج، واسمه فورتنبراس أخذ يجند جيشاً للهجوم على الدانمارك للثأر لأبيه، ولاستعادة الأملاك التي فقدوها والده. إذ من شروط المباراة أن من يقتل يخسر أيضاً أملاكه. ولكن ابن ملك النرويج بعد مقتل والده، لم يعترف بهذا الاتفاق، وحشد جيشاً لاسترجاع ما ضيعه والده.

ويرغب لايرت بن بولونيوس في العودة إلى فرنسا لمتابعة دراسته، إذ جاء فقط لتقديم التهاني للملك الجديد بالعرش. ويخبر هوراشيو - صديق هاملت وزميله في الدراسة أن الحارسين رأيا طيفاً يشبه طيف والد هاملت،

وهو في لباسه الحربي، وقال له ذلك. ورأى هوراشيو في الليلة الثالثة معهما الطيف نفسه في منتصف الليل.

ويخبر الطيف ابنه هاملت إن عمه الملك الحالي، قتله إذ وضع السم في أذنه وهو نائم في الحديقة، بعد أن أقام علاقة مع الملكة، وبذلك قام الملك الحالي بقتل أخيه والجلوس على عرشه، والزواج من الملكة التي كانت سابقاً عشيقته له. أي سلبه حياته وعرشه وشرفه. ويطلب الطيف من هاملت الأخذ بالنار، ويعدده هاملت بذلك. إن مأساة «هاملت» من المأساة التي تعتمد على سلسلة من الأعمال الانتقامية، فكل جريمة هي ثار لجريمة سابقة.

وكان هاملت يشعر أن قصة زواج عمه الملك الحالي من أمه بهذه السرعة غير طبيعية، وكان يشعر بذلك قبل أن يبوح له طيف أبيه بالسر. والآن أصبحت الأمور واضحة، ويطلب منه الطيف الأخذ بالنار، والكتمان عن رؤية الطيف. وكان ملك الدانمارك قد أرسل إلى ملك النرويج يطلب منه عدم حشد الجيوش ضد الدانمارك، وكان الملك بالوقت ذاته يشعر أن هاملت غير طبيعي. ويشرح له رئيس الديوان واسمه بولونيوس إن سبب ذلك هو حبه لابنته أوفيليا. ولكن هاملت يقول لأوفيليا إنه لا يحبها. وي طرح هاملت سؤاله المشهور «نكون أو لا نكون؟»^(١١).

واتفق هاملت مع فرقة مسرحية تمثيل مقتل أبيه، ووافق الممثلون، دون أن يعرفوا هدفه، ويشاهد هاملت مع أوفيليا والملك والملكة التمثيلية وهي حول ملك قتل بوضع السم في أذنه. ولا يستطيع الملك القاتل، عم هاملت، متابعة مشاهدة التمثيلية، التي أعدها هاملت، وبذلك يعرف هاملت أن طيف والده كان صادقاً، لأن الملك القاتل غضب، ولو لم يكن قاتلاً لما غضب من مشاهدة التمثيلية التي تصور فعلته الإجرامية.

ويختبئ بولونيوس وراء الستار ليتنصت إلى حديث هاملت مع والدته، ويشعر هاملت أن أحداً ينتصت عليه فيقطعنه بسيفه دون أن يدري أنه بولونيوس ويقتله ظاناً

أنه عمه الملك، وتنفذ ابنته عقابها بسبب موت أبيها، ويخبر الملك لايرت إن القاتل هو هاملت. وتغرق أوفيليا في النهر حزناً على ليبيها أي أنها تنتحر. ويتحدث هاملت مع أمه ويرى طيف أبيه ثانية ويظن أن أمه ترى الطيف إلا أنها لم تره. وكان هاملت قبل مقتل أبيه يدرس في جامعة وتبرغ في شمال ألمانيا.

ويطلب الملك من هاملت السفر إلى بريطانيا، ويزود مرافقيه بكتاب إلى ولي العهد فيها، يطلب فيه أن يقطع رأس هاملت فور وصوله بالبطلة، ويقرأ هاملت الرسالة، ويخفيها ويضع مكانها رسالة أخرى كتبها بنفسه، إذ كتب فيها باسم الملك: «الرجاء قتل حاملي هذه الرسالة بلا إبطاء» وختم رسالته بختم أبيه المقتول، الذي كان ما يزال يحتفظ به ولم يسافر، أي حول الفخ الذي نصب له إلى فخ نصب لأعدائه.

ويتبارز لايرت وهاملت بتحريض من الملك الذي يريد التخلص من هاملت، وسيف لايرت مطلي بالسّم القاتل، وكان الملك قد أحضر شراباً ساماً في حال عدم قتل هاملت بالسّم فسيفقله بالشراب، وتشرب الملكة عن طريق الخطأ كأس الشراب السام، وتموت بعد أن صرحت أن سبب موتها هو كأس السم. ويتبادلان السيفين ويضعن كل واحد منهما الآخر ويموتان ويقتل هاملت الملك بالسيف المسموم.

وبذلك يُقتل ملك النرويج ويُقتل ملك الدانمارك مسموماً وابنه هاملت وزوجته الملكة بالسّم ويُقتل أخوه الملك القاتل، ويُقتل رئيس الديوان بولونيوس وابنه لايرت وابنته أوفيليا غرقاً، ويُقتل المرافقان اللذان حملا رسالة قتل هاملت التي استبدلها برسالة أخرى. ونرى أشكالا متنوعة الموت بالسّم عن طريق الأذن أو الفم، الموت بالسيف العادي والمطلي بالسّم، والموت غرقاً بالنهر. ويصبح فورتنبراس ملكاً على الدانمارك بعد انتصاره في بولونيا، ويبقى حياً من شخصيات المساة هوراشيو، ويقتل أكثر شخصيات المساة، وعدد الذين قتلوا عشرة.

من أقوال هيجل (١٧٧٠-١٨٣١): «الرجل العظيم يجشم الدنيا مشقة فهمه»، وهذا ينطبق على مسرحية «هاملت» من هو هاملت؟ هناك شبه بين هاملت ولايرت وفورتنبراس، إذ كل واحد من هؤلاء الشباب الثلاثة يحاول الثأر لوالده، فورتنبراس يريد قتل هاملت لأن والد هاملت كان قد قتل والده، ولايرت يريد قتل هاملت لأن هاملت قتل والده بولونيوس - رئيس الديوان الملكي. وهاملت يريد الثأر لوالده من عمه. طبيعة هاملت مترددة، لم يقتل عمه مباشرة، سبب قتل أوفيليا ووالدها وأخيها، لم يكن صادقاً في حبه، وبالوقت ذاته يثير الشفقة، وهناك رأي لفرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) في سبب تردده، إنه داهية إذ استطاع أن يجعل الحفرة التي حفرت له حفرة لغيره، إذ غير الرسالة التي كانت تتضمن ضرورة قتله بالبلطة.

المجتمع الذي يعيش فيه هاملت مجتمع فاسد، الزوجة خائنة، والأخ خائن وقاتل، وهذان هما أم وعم هاملت. كتب عن مأساة «هاملت» بشكل مفصل الدكتور حسام الخطيب وتوقف عند موضوع تلوؤ هاملت، وكذلك عند رأي فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩)^(١٢).

وكتب عنها إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) مقالاً بعنوان «هاملت ودون كيشوت»: «إنه يعبر عن الأنانية ويحل كل أمر، ولذلك لا يعرف الإيمان إلى قلبه طريقاً، يعيش بكل قواه من أجل ذاته»^(١٣) هذا أحد آراء تورغينيف عن هاملت.

ويتابع إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) مقارناً بين دون كيشوت وهاملت: «رأينا في هذين النموذجين تجسداً لطبعتين إنسانيتين متناقضتين تتناقضاً جذرياً، إنهما نهايتان لمحور واحد تدوران حوله، ورأينا أن كل إنسان ينتهي بنسبة أو بأخرى إلى واحد من هذين النموذجين، بحيث أن كل واحد منا إما يشبه دون كيشوت، وإما يشبه هاملت»^(١٤).

وهناك وجهة نظر للشاعر الألماني غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) الذي رأى أن هاملت يمثل ذلك النموذج من الرجال الذين شلت عندهم القدرة على العمل مباشرة، شلها نمو العقل نمواً مفرطاً.

ولقد رأى جبرا ابراهيم جبرا أن سبب تردد هاملت يعود لإيمانه بعث
النظام الذي يسود الكون، فلو قتل عمه لما استطاع اقتلاع الفساد من جذوره،
مع أنه كان يتألم لأنه لم يفعل شيئا لدرجة أنه تظاهر بالجنون لكي يحمي نفسه
من الجنون الحقيقي، الذي كاد أن يصيبه بالفعل بسبب معرفته للفساد المحيط
به، والذي يكاد يغرقه. يقول جبرا ابراهيم جبرا: «تظاهره بالجنون محاولة
إيجابية منه لدفع الجنون عن نفسه»^(١٥).

ولا يستطيع هاملت أن يحب حبا متقانيا، مخافة أن تصبح زوجته، فيما لو
تزوج، خاتنة مثل أمه، التي يفترض أن تكون قديسة وطاهرة وشريفة، على الأقل
بنظر لبنها. ويرى في رغبة أوفيليا بالزواج منه إقبالا على الفجور، إنه ظنين ويظن
في كل شيء، ولكن لظنونه مبررات، لأنه يعيش في مجتمع فاسد، الأم فاسدة، والعم
فاسد، ولذلك فهو لا يثق بالآخرين، لأنهم فاسدون ومجرمون، ومن ثم فما هو العالم
الذي يجسده الملك كلوديوس؟ إنه يجسد العالم الفاسد الذي يجب أن يزول. وكذلك
والدة هاملت، أمّا هاملت فإنه يجسد تلك القوة المرشحة من قبل قوة غيبية بالقضاء
على الفساد، ويبدأ هاملت بالفعل بالقضاء على الفساد، فيقتل رئيس الديوان عن غير
قصد، أي أنه يبدأ بالقضاء على حاشية الملك ولم تصل يده إلى الملك إلا بعد أن
قضى على الحاشية وعلى كل من يحيط بالملك، وكان ثمن القضاء على الملك الذي
يرمز إلى عالم الفساد باهظا، إذ دفع هاملت حياته ثمنا لذلك. وجاءت قوة ثالثة، تكاد
تكون غير متوقعة، وهي من النبروج، فجاء فورتنبراس وتسلم زمام السلطة بعد أن
قتل كل من في القصر الملكي الدانماركي تقريبا.

٧- مأساة عطيل (١٦٠٤):

نقلها إلى العربية عن اللغة الفرنسية خليل مطران (١٨٦٩-١٩٤٩)،
وبعد ذلك ترجمها جبرا ابراهيم جبرا عن اللغة الإنكليزية، ويرى جبرا
ابراهيم جبرا أن اسم عطيل موجود باللغة الإيطالية وتعني الحذر، وليس هو
تحريفا لاسم عربي كما ظن خليل مطران. ولكن هل كان عطيل حذرا بالفعل؟
أم وقع في حفرة حفرت له؟

تجري معظم أحداث المأساة في مدينة البندقية، مثلها مثل كوميديا «تاجر البندقية» (١٦٠٠)، ولكنّ قسماً آخر من أحداثها، يجري في قبرص، موضوعها الأساس هو الغيرة القاتلة، غيرة زوج مخدوع على زوجته البريئة الشريفة، وغيرة صديق من صديقه.

ياغو حامل علم لعطيل، الذي هو مغربي شريف، قائد جيوش في خدمة البندقية، وكذلك في هذه المأساة كما في «تاجر البندقية» شخصية مغربية، فهناك أمير مغربي، وهنا قائد جيوش من أصل مغربي، ويتبع ياغو سيده عطيل المغربي فقط لكي ينتقم منه، وله وجهان، وجه مطيع، وآخر يخفي حبّ الثأر والانتقام، ويخاف أن يحصل عطيل على ديمونة ابنة أحد أعيان البندقية واسمه برابانتيو، ويعتمد ياغو في الوصول إلى غلباته على الدسيسة، وعلى معرفته العميقة بشخصية ضحيته، وهو يجسد الشر، وكان يضمّر الشر، ولا تظهر عليه علامات الإنسان الشرير، ولا يعرف الارتباك، لا يعرف الخوف إلى قلبه طريفاً، وذو إرادة صلبة قوية، وأناني إلى أبعد الحدود ولا يؤمن بوجود الحبّ والضمير والشرف، ومن يؤمن بهذه المفاهيم فهو ساذج أبله برأيه، فهو يقف خارج عالم الأخلاق نهائياً. يتلذذ بتعذيب ضحيته، وهو شديد الحساسية لأيّ شيء يمس كبريائه، لأنّه يعي ثقوه على الآخرين، إنّه يكره عطيل لأنّه جعل كاسيو ملازمه، وهو أيضاً ينزعج من كاسيو لأنّ عطيل فضله عليه، وهو يرغب في الحصول على منصب يليق بإمكانياته الكبيرة، يتعاون مع روبريجو وهو وجيه من وجهاء البندقية، لا يرغب به برابانتيو زوجا لابنته ديمونه، فيبلغ ياغو وروبريجو والد ديمونه أنّ عطيل يلتقي بها، ويتزوج عطيل - الذي هو سليل بيت من البيوت المالكة - ديمونة لأنّه أحبّها وأحبّته. عندها يبدأ ياغو بمحاولة تخريب بيت عطيل، إذ يحاول إقناعه أنّ ديمونة خائنة، وهي التي كانت ترافق زوجها في قبرص حيث جرت معارك انتصر فيها عطيل على الأعداء وأغرق سفنهم، فيقول ياغو لعطيل أنّ ديمونة غشت أباه، ولديها الاستعداد لخداع زوجها: «تزوجتك دون أن تحصل على موافقتك، وقد تغشك» ويبحث عن وسيلة يحاول فيها تخريب بيت

عطيل بيد عطيل نفسه، ولأنه لا يستطيع تنفيذ المؤامرة بمفرده، يطلب من زوجته إميليا مساعدته، دون أن يشرح لها أنه يحبك خيوط مؤامرة. فيطلب من زوجته إميليا سرقة منديل زوجة عطيل، واسمها كما أشرنا ديمونة، دون أن يشرح لها الأسباب، أو أنه يضمّر الشر لأسرة عطيل، فتقول إميليا: «هذا المنديل هو أول تذكر أهداه المغربي إليها، وزوجي الغريب الأطوار، قد لاطفني، وسألني أن أسرقه له، غير أنها تحب هذه الهدية حباً جماً، لأنّ عطيل أوصاها ملحاً بالاحتفاظ بها أبدأ، ولهذا هي تحملها بلا انقطاع وتقبلها وتخطبها»^(١٦). وتسرق إميليا المنديل وتعطيه لزوجها ياغو الذي يرميه في غرفة كاسيو.

ويقول لعطيل: «إنني كنت بائناً منذ ليل مع كاسيو... تبينت أن كاسيو يرى حلماً... سمعته يقول وهو مستغرق في رؤياه «حبيبتني ديمونة لكن حزين ولنخف حبنا»... وحينئذ يا سيدي أمسك بيدي يشدها ويصيح «يا لك من حسناء شهية» ثم طفق يلتفتني بقوة... ثم ألقي بساقه على فخذي وتهد وعانقي وصاح: «لعن الله الحظ الذي وهبك للمغربي»^(١٧). ويقول لعطيل إنه رأى المنديل بيد كاسيو.

ويطلب عطيل من ديمونه المنديل متظاهراً أنه مصاب بركام قوي، وهذا المنديل وهبته امرأة مصرية لأمّ عطيل، وكانت المصرية ساحرة، وقالت لها ما دام المنديل معك فزوجك يحبك وإن فقدته فقد تفقدت حباً زوجك. وحافظت عليه إلى ساعة زفافها وأعطته لعطيل وأوصته أن يعطيه لزوجته، فلا يجوز فقده. وهو من الحريز الطبيعي.

ويقول ياغو لعطيل إن كاسيو اعترف له بفعلته، واتفق وإياه أن يسمع حديثاً بينه وبين كاسيو ويكون عطيل مختبئاً، ووافق عطيل، وسمع الحديث ولكنّ الحديث دار حول امرأة أخرى كانت خلية كاسيو، وظن عطيل أنّ الحديث يدور حول زوجته ديمونة.

ويسأل عطيل إميليا زوجة ياغو عن ديمونة، ويتهم زوجته بالخيانة وكان ياغو يأخذ من رودريجو مجوهرات بحجة أنه يعطيها لديمونة، ولم يعطيها ففريد التخلص من رودريجو لكي لا يطالبه بالمجوهرات، ويريد أيضاً التخلص من

كاسيو، فقال لرودريجو إن وفداً جاء من البندقية ويريد تعيين كاسيو مكان عطيل، فالأفضل التخلّص من كاسيو، الذي سيكون في منتصف الليل عند خيلته. ويضرب كل منهما الآخر رودريجو وكاسيو، ويضرب ياغو كاسيو ويكسر ساقه، كل هذا في الظلام ويهرب وبعد ذلك يعود في الظلام ويضرب رودريجو ويقتله.

يخلق عطيل ديمونة بتهمة الخيانة مع كاسيو ولكن إمبيليا زوجة ياغو تكشف الحقيقة لعطيل أن المندبل هي أختته وأعطته لزوجها دون أن تعلم أنه بييت أمراً خبيثاً وإجرامياً، فيقطع عطيل نفسه حزناً على ديمونة. ويكون قد طعن ياغو وجرحه، ولكنه لم يقتله، ويصف عطيل نفسه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «... رجل لم يعقل في حبّه، بل أسرف فيه، ... رجل رمى عنه بيده (كهندي غبي جاهل) لأولّوة، أثنى من عشيرته كلها، رجل إذا انقلب درت عينه، وإن لم يكن الذرف من دأبها، دموعاً غزيرة كما تدر أشجار العرب صمغها الشافي...»^(١٨). ولعل هذه الأوصاف التي وصف بها نفسه أصدق من كل تحليل لشخصيته.

أمّا كاسيو الذي تسلم زمام الأمور، بعد موت عطيل فهو شاب طيب معجب بشخصية عطيل، ومخلص له، وأمّا زوجة ياغو إمبيليا فهي تشبه كاسيو في طبيعتها، هي تحب ديمونة، وإن كانت دون أن تدري قد شاركت في المؤامرة التي حاكها زوجها الشرير. وديمونة إنسانة طيبة شريفة مخلصة لزوجها، صديقة لا تعرف الخداع ومن ثم فالصرّاع في هذه المأساة بين شخص شرير هو ياغو إلى أبعد الحدود وبين أشخاص لا يعرفون الشر هم عطيل وزوجته ديمونة، اللذان وقعا ضحية طبيّتهما، انتحر عطيل بعد أن خنق زوجته، وجرح عطيل ياغو ولكنه لم يقتله هل يعني هذا أن الشر باق، والخير سيموت؟ ولكن هناك أملاً أن ياغو سيحاكم على فعلته القذرة.

٨- مأساة «الملك لير» ١٦٠٥:

موضوع المأساة هو علاقة الآباء بالأبناء والعكس، ولكن هنا علاقة الملك لير ببنته البنت الكبرى: جونييل، البنت الوسطى ريغان، البنت الصغرى كورديليا.

يشعر الملك لير بتقديمه في السن فيقرر تقسيم أملاكه بين بناته الثلاث،
فيعطي الكبرى حصتها وشكره، وكذلك الوسطى، أما الصغرى والتي كانت
ما زالت عازبة، فلم تكذب كما كذبت أختها، ولم تقل له الكلام الذي أرادته،
ولذلك يقول أبوها عنها «فمثل هذه الابنة لا تعني لي شيئاً، ولا أريد أبداً أن
أبصر وجهها ثانية»^(١٩) ولذلك فهو يعطي حصتها لأختها، ويتنازل عن الحكم
والسلطة ويحتفظ بلقب الملك وبمائة فارس.

ويصرح الملك لير بأنه حرم ابنته الصغرى من الإرث، فيستغرب ملك
فرنسا وهو أحد خطابها ويظن أنها فعلت شيئاً معيباً، ولكنها دافعت عن نفسها
وقالت بأنها لم تفعل شيئاً معيباً، كل ما هناك أنها لم تكذب، ويقبل بها ملك
فرنسا لأنه يريد لها ذاتها ولا يريد لها لثروتها وبتزوجها، وترى البنت الصغرى
واسمها كورديليا مخاطبةً أختها: «الزمان كفيل بأن يكشف ما تحاولين أن
تخفيه بدهاء»^(٢٠). ويحذر أحد النبلاء واسمه (كنت) من مغبة توزيع الملك
لممتلكاته على ابنتيه، فيطرده الملك، ولكن هذا النبيل يعود متخفياً.

ويروي شكسبير في المأساة حكاية أسرة أخرى هي أسرة غلوستر، وله
ابنان أحدهما شرعي والآخر غير شرعي، واسمه إدموند، ولا يحق للابن
اللاشرعي أن يرث شيئاً عن أبيه غلوستر، ولذلك يحاول إدموند أن يحصل
على الورثة بالطرق الخبيثة، مستغلاً أن أباه أبله يصدق كل شيء، ويقول:
«أنا لي في هذه اللعبة دور هام سأقوم به بإحكام»^(٢١).

أما بالنسبة للملك لير فتبدأ ابنتاه بمضايقته، وتقول له الكبرى إن حاشيته
سينة الأخلاق وعددها كبير، لا بد من تقليص العدد، فيلعنها ويرحل إلى
أختها، التي لم تكن أفضل من أختها الكبرى، ويحذره البهلول ويقول له إنه
أخطأ عندما وزع ممتلكاته على بناته.

فتقول له البنت الوسطى إن أختها الكبرى على حق فلا حاجة له إلى
هذه الحاشية الكبيرة، يكفيه خمسون فارساً لا بل خمسة وعشرون ولا حاجة

له أبداً إلى الحاشية، فخدمها سيخدمونه وتطلب منه أن يعود إلى أختها الكبرى ليكمل شهره عندها، وبعد ذلك سيقضي شهراً عند الوسطى ويعود بعد ذلك إلى الكبرى، لأن الأختين كانتا قد اتفقتا على أن يقضي الملك لير عند كل واحدة شهراً بالتناوب. فبرحل عنها بعد أن يلغنها في جو ماطر عاصف.

وكانت ابنتاه تتمنيان له الموت، ويقعد الملك لير عقله، وتقتلع ابنتاه عيني رجل اسمه غلوستر لأنه أدلهما ووقف ضد فعلتهما، وكان ابنه اللاشرعي قد ليلغهما أن أباه خائن ولا يخلص ودهما، وقتل زوج البنت الوسطى واسمه اللوق كورنول بيد خادمه، وتتافس الأختان على حب إدموند، الوسطى أصبحت أرملة فقريده زوجها، والكبرى لا تحب زوجها وتقيم معه علاقة سرية.

ويهجم ملك فرنسا على الجيش البريطاني وينتصر الجيش البريطاني وتقع البنت الصغرى زوجة ملك فرنسا واسمها كورديليا في الأسر مع أبيها الملك لير.

وتوافق ريغان على الزواج من إدموند، وتسممها الأخت الكبرى، وتقتل الكبرى نفسها بعد ذلك، ووقع إدموند صريعاً على يد أخيه إدغار وكان إدموند قد طلب شفق كورديليا، والادعاء بأنها شفت نفسها، وبالفعل شنقوها في السجن^(٢٢).

لم يكن هذا الموضوع جيداً في الأدب ولا في الشرائع الأرضية والسماوية فكلها تتحدث عن علاقة الآباء بالأبناء، وبعد شكسبير كتب تورغنيف (١٨١٨-١٨٨٣) رواية بعنوان «الآباء والبنون» وكذلك ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) كتب مسرحية حملت العنوان ذاته عام ١٩١٧ عندما كان في أمريكا.

إن موضوع الأخوة الثلاثة أو الأخوات الثلاث معروف في الأساطير والحكايات الشعبية، وعادة تكون الأخت الصغرى هي على حق كما حدث في مأساة «الملك لير».

يموت في هذه المأساة الملك لير وبناته الثلاث، ويقتل إدموند الخبيث، تجري بعض أحداث المأساة في البراري، حيث الوحوش الضارية، فلا تستطيع التفرق بين الإنسان والوحش، فما هو الفرق بين ابنة تطرد أباه في ليلة عاصفة وبين الوحش، وما هو ذنب والدها؟ وما هو الإثم الذي اقترفه الملك لير؟

إن الإثم الوحيد الذي اقترفه الملك لير هو التفريط بحقوقه، وعدم قدرته على معرفة نوايا ابنتيه، وبالتالي فقد انتقل من حالة القوة إلى حالة الضعف فأصبح لا يملك شيئاً، وفقد عقله.

وهناك مهرج في المأساة نشعر أحياناً أن أقواله صائبة وصحيحة إذ أصبحت أحوال الملك لير تشبه أحوال البهلول أو المهرج. تنازل الملك لير عن أملاكه، ولكنه لم يتنازل عن كرامته^(٢٣). فقد كليهما معاً، بما في ذلك عقله، لأن المفاجأة صعقته، لم يتوقع أن جشع ابنتيه سيبتلعه. تجسد المأساة شكلاً من أشكال الفساد، فساد الابنة تجاه أبيها، وبهذا فهي تلقى مع مأساة «هاملت» حيث يلدغ الأخ أخاه والزوجة زوجها، هنا تلدغ الابنة أباهما الطبيب، الملك لير شيخ متقدم في السن، يعرف ابنتيه، فتوقع أن من يكرم الآخر ملكه، ولكن الآخر هنا تمرد ولسع، ومأساة الملك «... من سذاجته وإفراطه في الطبية الذي بلغ حد الحماسة، فجر الكوارث على نفسه وعلى غيره»^(٢٤).

٩- مأساة «ماكيبث» ١٦٠٦:

تدور المأساة عن السلطة والاستبداد والطمع والجشع وكذلك عن القدر، مثلت لأول مرة عام ١٦٠٦ تجري الأحداث في اسكتلندا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

اسم ملك البلاد دنكن الذي اتصف بوداعته وله ابن خالة اسمه ماكيبث معروف بقسوته فكانا طرفي نقيض. واستغل الناس وداعة الملك فثاروا عليه، وقاد الجيش الملكي ماكيبث للقضاء على العصيان وساعده بانكوكو، ويستطيع ماكيبث القضاء على المتمردين، وعندما شعر قائد العصاة بإخفاق التمرد قتل أفراد أسرته، وانتحر، لأنه يعلم أن ماكيبث سيفتك به وبأفراد أسرته، ومع هذا فعندما دخل ما كيبث القلعة قطع رأس قائد المتمردين، وعلقه على سارية، علماً بأنه كان منتحراً، كما أسلفنا ليكون عبرة لغيره.

واتفق أن ساحرات ثلاثاً، صادفن ماكيبث وبانكوكو في الغابة، وأبلغنه أنه سيصبح ملكاً، وأما رفيقه فلن يصبح ملكاً إلا أن من سلالته سيخرج الملوك.

وانفق ماكيبث مع زوجته على اغتيال الملك دنكن، وينفذ الجريمة، ويضع الخنجرين الملطخين بدم الملك دنكن بيد حارسيه وهما نائمان لكي يتيهم الحارسان بجريمة قتل الملك وهما منها بريئان، تقول زوجة ماكيبث لزوجها: «هل ثمة ما لا نستطيع فعله، أنا وأنت، في دنكن وهو بلا حراسة هل ثمة ما لا ننتهم به حارسيه المخمورين، فنحملهما تبعة غيلتنا الكبرى؟»^(٢٥).

ويقتل ماكيبث الحارسين بتهمة أنهما قتلا الملك. وبذلك تحققت نبوءة الساحرات إذ أصبح ماكيبث ملكاً. وأقدم على فعلته النكراء بدافع تعاطفه للسلطة، وبتحرير من زوجته التي تتعطش للقب ملكة.

ولكن بعض النبلاء أحس أن هناك مؤامرة لعدم وجود مصلحة أو هدف لدى الحارسين في قتل الملك دنكن، ويصبح ماكيبث ملكاً ولكن تقلقه النبوءة إذ لن يرث العرش أولاده بل أولاد بانكوكو، ويرى عبث جريمته، إذ إنه ما هو إلا جسر لنقل العرش من دنكن إلى ورثة بانكوكو، فيقرر استئجار مجرمين اثنين لاغتيال بانكوكو، ومجرم ثالث للنجس عليهما واستطاع أحد المجرمين قطع رأس بانكوكو، أما ابنه فليانس فهرب، وأخذ ماكيبث يحكم البلاد بالقسوة والاستبداد، وتتنبأ له الساحرة بأن ملكه سيزول عندما تهجم عليه الغابة، وأصبح ماكيبث يخاف الناس جميعهم مثله مثل الطغاة كلهم، وأخذ الناس كلهم يخافونه، واستطاع نبيل اسمه ماكدف محاصرته مع غيره من النبلاء وأمر بقطع أغصان الغابة وأمر كل جندي أن يحمل غصناً في أثناء الهجوم على ماكيبث، فتحققت النبوءة، إذ تراءى لماكيبث أن الغابة تهجم عليه، وقتل ماكيبث وانتهت حياته الديكتاتورية التي استمرت سبعة عشر عاماً، أمضاها في الدسائس والمؤامرات والاغتيالات، استطاع الوصول إلى عرش الملك بعد أن قتله، وقتل غيره قبل ذلك وبعده، ولم ينج نفسه من القتل والبطش، وصدق الذي قال: وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين.

خاتمة:

ما أكثر الكتب التي صدرت عن مسرح شكسبير، وما أكثر المسارح التي عرضت مسرحياته، وما أكثر دور النشر التي أصدرت مؤلفاته، من بين الذين كتبوا عن المسرحي الإنكليزي الشهير الكاتب العربي من مصر أحمد أمين في كتابه «قصة الأدب في العالم» الجزء الثاني^(٢٦) حيث يقسم مراحل إبداعه إلى أربع مراحل. المرحلة الأولى قبل عام ١٥٩٤ حيث أصدر قصيدته «فينوس وأدونيس» التي نشرت أكثر من عشر مرات خلال عشر سنوات، وقصيدته «لو كريس»، أمّا المرحلة الثانية برأي أحمد أمين فهي تمتد ما بين ١٥٩٥-١٦٠١، إذ كتب خلالها مأساة «روميو وجولييت» (١٥٩٥) وملهاة «تاجر البندقية» (١٦٠٠) ومأساة «يوليوس قيصر» (١٥٩٩) و«هاملت» (١٦٠١) وتمتد المرحلة الثالثة ما بين عامي ١٦٠١-١٦٠٧ وكتب خلالها مأساة «عطيل» (١٦٠٤) ومأساة «الملك لير» (١٦٠٥) ومأساة «ماكبث» (١٦٠٦) ومأساة «أنطونيو وكليوباترا» (١٦٠٧)، والمرحلة الرابعة امتدت أربع سنوات ما بين عام ١٦٠٨ إلى ١٦١٢ حيث رحل إلى بلنته ستراتفورد وتقاعد عن العمل المسرحي.

ومن أشهر النقاد العرب الذين كتبوا عن شكسبير عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، الذي ترك لنا مجموعة من الكتب عن مشاهير العالم منهم الشاعر الألماني غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) ومنهم المسرحي الإنكليزي برنارد شو، وكما خصص كتاباً عن حياة شكسبير وأدبه يقول فيه: «إن عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ولكننا لا نبحث عنها لأننا نراها حيثما رأينا شكسبير في عمله، ورأينا أنه عمل عظيم قليل النظير بين أعمال النابهين على غرار»^(٢٧).

ويتابع عباس محمود العقاد: «... خلق بطبيعة الحكيم المتأمل ولم يُخلق بطبيعة القلق المناضل المدفوع إلى تبديل ما يخالفه من أمور زمنه»^(٢٨) ويتابع العقاد أن شكسبير لغز مثله مثل معظم العباقرة، وعلى النقاد دراسة هذا اللغز، ومن بين كبار الأدباء الذين درسوا شكسبير الروائي والمسرحي الروسي الكبير ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) ولكن آراءه عن شكسبير كانت سلبية على عكس عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤). ولا بأس من الإشارة إلى أن الشاعر والروائي باسترناك نظم قصيدة بعنوان: «هاملت»^(٣١).

المصادر والحواشي

- (١) د. حسام الخطيب، جوانب من الأدب النقد في الغرب، جامعة دمشق، الطبعة السادسة، عام ١٩٩٦ ص ٩٥.
- (٢) المرجع السابق، ص ٩٦.
- (٣) مسرحيات شكسبير الكاملة، بيروت، دار نظير عبود، المجلد الرابع، ١٩٩١، الطبعة الأولى، ص ١١-١٠.
- (٤) المصدر نفسه، المجلد الخامس ص ١٧٢، مأساة «روميو وجولييت». تعريب: رياض عبود، مشاطي، خليل مطران، ط١، بيروت، دار نظير عبود. ١٩٩١.
- (٥) المصدر نفسه. ص ١٧٢.
- (٦) المصدر نفسه. ص ١٧٢.
- (٧) شكسبير، يوليوس قيصر، تعريب: رياض عبود، مشاطي، خليل مطران، ط١، بيروت، مسرحيات شكسبير الكاملة، المجلد الرابع، دار نظير عبود. ١٩٩١ ص ٢٣٤.
- (٨) شكسبير، أنطونيو وكليوباترا، تعريب: رياض عبود، مشاطي، خليل مطران، ط١، بيروت، مسرحيات شكسبير الكاملة، المجلد الرابع، دار نظير عبود. ١٩٩١ ص ٤١٥.
- (٩) مسرحيات شكسبير الكاملة، مصدر سابق، تاجر البندقية، المجلد الثاني ص ٢٥٨-٢٢٩.
- (١٠) المصدر نفسه.
- (١١) مسرحيات شكسبير الكاملة، بيروت، دار نظير عبود، المجلد الرابع، ١٩٩١ الطبعة الأولى، هاملت، ص ١٥٥.
- (١٢) د. حسام الخطيب، جوانب من الأدب والنقد في الغرب، ص ٩٨-١١٠ مصدر سابق.
- (١٣) مجلة الآداب الأجنبية، عام ١٩٩٢، العدد ٧١، ص ٧٠، ترجمة د. مدوح أبو ألوي.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٧١.

الفصل الثالث

سرفانتس

(١٥٤٧ - ١٦١٦)

١- ولد في إسبانيا في الأول من تشرين الأول بالقرب من مدريد

عام ١٥٤٧:

والده طبيب جراح، درس سرفانتس في قرطبة ثم تابع دراسته عام ١٥٦٤ في اشبيلية، ثم انتقل إلى مدريد ١٥٦٨، ثم سافر إلى إيطاليا عام ١٥٦٩ واستقر في روما. وانهم بمساعدة صديق له بمشاجرة انتهت بقتل رجلين ، وهرب مع صديقه.

وانتسب إلى صفوف الجيش الإسباني العامل في إيطاليا عام ١٥٧٠ وخاض معركة بحرية ضد الجيش التركي عام ١٥٧١، أصيبت يده اليسرى بعطل دائم فيها.

وحاول العودة من نابولي في إيطاليا إلى إسبانيا عام ١٥٧٥ إلا أنه وقع في الأسر، إذ هاجمت سفينته سفينة تركية، وأمضى في الأسر في الجزائر خمس سنوات وأطلق سراحه بعد أن قدم له أحد الرهبان فدية مالية، وهناك من يرى أنه ليس إسبانياً أصيلاً، ولكن هذه الفرضية ليست صحيحة. وتميزت شخصية سرفانتس بالعزة والإباء.

عاد إلى مدريد عام ١٥٨٠، وتزوج ولكن زواجه لم يكن موفقاً. وعمل بالكتابة، ولكن الأدب لم يشبعه خبزاً، لأن معظم أدباء عصره حاربوه، فعمل جالياً في مدينة اشبيليا وسجن بسبب إهماله في الحسابات مرتين كانت المرة الأولى عام ١٥٩٧، أقام علاقة في اشبيليا مع إحدى السيدات وأنجبت منه ابنة غير شرعية. وأقامت ابنته علاقة غير شرعية، ووجد عشيقها مقتولاً أمام بيت سيرفانتس، فاتهمته السلطات بجريمة القتل، ولكن ثبتت براءته، وحملت أخته سفاحاً، ومات أخوه، أي إن أحواله الأسرية لم تكن جيدة.

وسجن للمرة الثالثة عام ١٦٠٣. وصدر الجزء الأول من روايته «دون كيشوت» عام ١٦٠٥ والجزء الثاني بعد مرور عشر سنوات أي عام ١٦١٥ وتوفي في ٢٣ نيسان عام ١٦١٦ في مدريد، ودفن فيها.

طبع الجزء الأول خلال السنة الأولى من نشره ست طبعات، مما يدل على الإقبال الكبير لدى القراء. هي الرواية الأولى في الأدب العالمي، كتبت الجزء الأول عام ١٦٠١، ولكنه صدر عام ١٦٠٥.

٢ - رواية «دون كيشوت»:

هناك راوٍ لهذه الرواية وهو حامد بن نخلة، وهو عربي ويقول: «كنت ذات يوم في درب القناة في طليطلة، فشاهدت صبياً، أتى تاجر أقمشة حريرية ليبعه كراسات قديمة، وأنا شديد الوله بالقراءة، وحتى بقراءة قصاصات الورق، التي يُقذف بها إلى الشارع، فدفعني هذا الميل الطبيعي إلى تناول إحدى الكراسات التي كان الصبي يعرضها للبيع، وجدها مكتوبة بحروف عربية، ولما كنت لا أعرف قراءتها، وإن استطعت تمييز ما هي، ففكرت فيما إذا أستطيع العثور على عربي متنصر، أصبح من الأعاجم، يمكن أن يقرأها لي.....»^(١) ويتحدث حامد بن نخلة عن دون كيشوت الذي يتصف بنحافة جسمه وطول قامته، وبحبه لقراءة كتب الفروسية، وقرأ وتعمق في القراءة،

حتى أصيب بعقله وقال لماذا لا أكون أحد الفرسان الجوالين؟ فلدنيه فرس ولكنها هزيلة ولديه خوذة كانت لجده فأصلحها، وتذكر أنه لا بد من امرأة يحبها، لأن للفارس عادة معشوقة، فتذكر اسم الفتاة القروية التي أحبها في أيام شبابه، ولم تكثر به، وبهذا أصبح يملك كل ما يحتاج إليه الفارس فبدل اسمه الحقيقي وهو كيخانا وسمى نفسه دون كيشوت وغير اسم الفتاة التي كان يحبها في أيام شبابه وسماها دولسينا لأن اسم دولسينا أكثر ملاءمة للفروسية.

وهكذا أخذ يمارس الفروسية، ولكنه في البراري عطش وجاع، ولذلك لجأ إلى فندق إحدى البلدات فوجد على بابه امرأتين من بنات الهوى، فظن أنهما واقفتان للاحتفاء به كأحد الفرسان، ونزل في الفندق وكان يفسر كل حركة في الفندق وفي البلدة ما هي إلا لتكريمه وللحفاوة البالغة به.

وطلب دون كيشوت من صاحب الفندق خدمة يقدمها للمجد والإنسانية وهي أن يقدم له فارساً مرافقاً، وأن يرسمه فارساً. وتأكد صاحب الفندق أن دون كيشوت مصاب في عقله، وهناك في الفندق تجمع عليه النزلاء وضربوه وأهانوه.

وخرج من الفندق بعد أن أعلمه صاحب الفندق بأنه فارس أصيل، وتابع مسيرته ليحقق أهداف الإنسانية الرائعة.

فوجد في البرية رجلاً بضرب صيباً فتدخل وأنقذ الصبي الذي كان يعمل راعياً عند ذلك الرجل، ولكن ما أن أدار دون كيشوت ظهره حتى تابع الرجل ضربه للصبي، لأنه لا يرفعى الغنم بالشكل الذي يريده صاحب القطيع، فتأكل الذئاب الأغنام بسبب إهماله.

ووجد في البرية فريقاً من التجار وهم عليهم وقال لهم: «عليكم أن تعلنوا أن معشوقتي دولسينا هي أجمل النساء»، فعرفوا أنه مجنون فتركوه، ولكنه هجم عليهم، ووقع حصانه في أثناء الهجوم.

فاندفع نحوه أحد التجار وكسر رمحه، وأشبعه ضرباً، «وما تركه إلا بعد أن تعبت يداه، ومضى التاجر لغايتهم تاركين وراءهم فارساً يريد أن ينهض عن الأرض فلا يستطيع»^(٦).

عاد دون كيشوت إلى بيته ورأى أن ما أصابه يشبه ما أصاب الفرسان الأصلاء، فكلهم تألموا وعانوا في سبيل مثلهم ومبادئهم، وعرف جاره الفلاح أن دون كيشوت أصيب في عقله، فلقد اتخذ لنفسه لقب دون كيشوت في حين أن اسمه كيخانا، كما أسلفنا.

وعندما عرف قس القرية وابنة أخي دون كيشوت وحلاق القرية أن قراءة الكتب هي التي جعلت دون كيشوت يفقد عقله، قرروا حرقها، وحرقوها، بالفعل.

وعندما سأل دون كيشوت عن المكتبة لأنه لم يجدها، قالوا له إن الشيطان قد أخذها.

ومكث في هذه المرة في بيته خمسة عشر يوماً، استطاع خلالها إقناع جاره الفلاح واسمه سانشو بمرافقته وإعداد إياه بمقاطعة أو إمارة على جزيرة سيحتلها أو يستولي عليها.

وعندما خرجا رأى دون كيشوت طواحين الهواء، فظنها عمالقة جاءت لقتاله. فهجم عليها وقال له مرافقه إنها ليست عمالقة إنها طواحين هواء، فأجابه دون كيشوت إنه ليس فارساً ولذلك يحسب العمالقة طواحين هواء. دون كيشوت مثالي، في حين أن سانشو واقعي.

وهجم دون كيشوت على طواحين الهواء يقاتلها، وانكسر رمحه ووقع على الأرض بين من الآلام، وتصور أن الشيطان الذي أخذ مكتبته هو نفسه حول العمالقة إلى طواحين هواء، وبذلك فقد دون كيشوت الرمح، وحمل عصا بدلاً منه.

ووجد في الطريق راهبين فظنهما فارسين فهجم على أحدهما وتغلب عليه وهجم الحراس على مرافقه سانشو وأشبوه ضرباً، وكان خلف الراهبين عربية فيها سيدة، فطلب دون كيشوت من السيدة أن تحدث معشوقته دولسينا عن شجاعته وأخلاقه وكذلك طلب من مرافقها بعد أن انتصر عليهم، فوعده بذلك دون أن يعرفوا من هي هذه التي تملك فؤاده.

وكان دون كيشوت لا يحمل نقوداً لأنّ الفرسان عادة لا يحتاجون إليها، إذ كانوا يتناولون الطعام حيث يحلون مجاناً، ولم يدفعوا أجرة مبيتهم، ونزل دون كيشوت في أحد الفنادق وعد الفندق قصراً، إلا أنّ صاحب الفندق طالبه بالأجرة فاعتذر عن الدفع لأنّ الفرسان لا يدفعون أجرة. فقام صاحب الفندق ومجموعة من الناس بتعذيب سانشو مرافق دون كيشوت.

ويقول د. عبد الرحمن بدوي الذي ترجم «دون كيشوت» عن الإسبانية «والموضوع الأساسي في القصة هو التعارض بين أحوال وأعمال الوسط الاجتماعي...، وبين فكرة غريبة جداً هي أن يصبح فارساً جوالاً، وأن يبعث بذلك العصر الوسيط، ومهمة الفارس الجوال هي حماية المستضعفين، ومعاكبة المجرمين، وتصحيح الأخطاء، والقضاء على الجرائم، والفصل بين المنازعات لصالح العدالة...»^(٣) وضرب الرعاة دون كيشوت بالحجارة لهجومه على أغنامهم لأنّه عد الأغنام جيشاً.

وفي نهاية القصة ينصح مرافقه بالابتعاد عن الفروسية ويموت دون كيشوت حزناً لمعرفته أنّ العالم الذي يعيش فيه غير العالم الذي كان يتوهمه، ودون كيشوت هو الإنسان الذي يعيش لغيره ولا يعيش من أجل نفسه.

وبرى حسن حميد في مقال بعنوان «تلك الثنائية» كتبه في جريدة الأسبوع الأدبي، العدد (٦٣٤) تاريخ ١٩٩٩/١/٩ أنّ هناك ثنائية في شخصية دون كيشوت، فهو من ناحية فارس ومن ناحية يتلقى الضربات والإهانات^(٤).

ودون كيشوت لا يرى في العالم إلا الجمال، فبنات الهوى بنظره نيبلات شريفات، والفندق برأيه قصر رائع، فهو يرى القبيح جميلاً، وهو يريد أن يقدم الخدمات للآخرين حتى في الوقت الذي لا يحتاجونها، ويحارب الشر، حتى عندما لا يوجد شر.

ولقد اتخذ سرفانتس لروايته شكلاً فنياً، فجاءت على لسان حامد بن نخلة، ووجدتها سرفانتس باللغة العربية على قصاصات جمعها، إلا أن شخصية الروائي تظهر أحياناً.

٣ - هاملت ودون كيشوت^(٥):

أجرى الروائي الروسي إيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) مقارنة بين هذين النموذجين ورأى أن الناس كلهم بشكل واحد أو غير واحد يعيشون بحسب مبادئهم، ويمثل هاملت الإنسان الأناني، ويمثل دون كيشوت الإنسان الذي يعيش لغيره، وهما يمثلان قطبي الإنسانية ففي كل إنسان بعض صفات هاملت، وبعض صفات دون كيشوت، لأن كل إنسان يعيش من أجل نفسه ومن أجل الآخرين بالوقت ذاته. هاملت يعيش فقط من أجل نفسه، ودون كيشوت يعيش فقط من أجل الآخرين، وبقدر ما تكون صفات دون كيشوت موجودة في النفس، بقدر ما يكون صاحبها صالحاً ومفيداً لمجتمعه، وبقدر ما يتخلى عن صفات دون كيشوت ويتصرف بصفات هاملت بقدر ما يكون أنانياً^(٦). وشاءت الأقدار أن يلفظ شكسبير الإنكليزي وسرفانتس الإسباني أنفاسهما في يوم واحد في ٢٣ نيسان ١٦١٦ وهما أكثر أدباء بلديهما شهرة.

ويرى أحمد أمين أن سرفانتس أراد «... أن يصور لنا ضرباً من الناس يعيش في أوهامه وتملكه فكرة خاطئة فتتحكم في سلوكه، كأنما هي حق واقع...»^(٧) وخلصه القول: «إن دون كيشوت مصاب بلوثتين جميلتين

لا شفاء منهما، الأولى: لوثة الفروسية والبحث عن الشهرة. والثانية: لوثة العشق والبحث عن الطهارة والعذرية»^(١). إنه يبحث عن المرأة الحلم، وليس عن المرأة التي جبلت من التراب، إنه عاشق للمعاني المجردة، وليس للواقع، إنه لا يعرف حبيبته، إنه يقبس المرأة في زمن أصبحت فيه المرأة مادة للمتعة الزائفة.

ورواية دون كيشوت من الروايات العالمية الشهيرة، إذ صدرت حتى الآن باللغات الحية بمئات الطبعات.

ولقد استلهم الشاعر نزار قباني (١٩٢٣-١٩٩٨) شخصية دون كيشوت في قصيدة «الممثلون» عام ١٩٧٨ التي يقول فيها:

محاكم التفقيش عادت ... والمفتشون

والدوتكيشوتيون ... ما زالوا يشخصون ...^(١)

وكذلك في قصيدة «راشيل وأخواتها» عام ١٩٩٦ يقول الشاعر:

انتظرنا قرشياً واحداً

دون كيشوتاً واحداً^(١٠)

وكذلك في ديوان ممدوح عدوان «نحن ... دون كيشوت»، وديوان الشاعر التونسي الهادي النليلي «كوابيس دون كيشوت»، وديوان الشاعر السوري حسان عطوان «معمودية الدم» وغيرهم.

المصادر والحواشي

- (١) سرفانتس، دون كيشوت، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، القاهرة، دار النهضة العربية، ص ٩٠.
- (٢) سرفانتس، دون كيشوت، ترجمة جوزيف إلياس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٩، ص ٤٣.
- (٣) عبد الرحمن بدوي، مقدمة لترجمة دون كيشوت، لـ سرفانتس، الجزء الأول، القاهرة، دار النهضة العربية.
- (٤) حسن حميد، الأسبوع الأدبي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد (٦٤٣) تاريخ ١٩٩٩/١/٩.
- (٥) مجلة الآداب الأجنبية، العدد (٧١) عام ١٩٩٢، هاملت ودون كيشوت، ترجمة د. ممدوح أبو آلي.
- (٦) علي أدهم، بين الفلسفة والأدب، القاهرة، دار المعارف ص ٢٨٣.
- (٧) أحمد أمين، قصة الأدب في العالم، الجزء الثاني، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠، ص ٨.
- (٨) حسن حميد، البقع الأرجوانية في الرواية الغربية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩، ص ١٢٧.
- (٩) نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، قصيدة «الممطلون» مجلد ٣ بيروت.
- (١٠) المصدر السابق، قصيدة «راشيل وأخواتها» مجلد ٩.



مُقَدِّمَةٌ

عرفت الأمة الروسية الكتابة في القرن العاشر الميلادي، ولقد نقل إليها البلغار الأبجدية، أي أنها تأخرت كثيراً في الحصول على الكتابة، وإذا ما قارناها بالأمة العربية نجد أنها تأخرت كثيراً، فكانت الأمة العربية تعيش عصرها الذهبي، في وقت لم يكن لدى الروس حتى الأبجدية، فكان لدينا في القرن العاشر شعراء من أمثال أبي الطيب المتنبي (٩١٦-٩٦٦م) وأبي العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧م).

انتقلت الأمة الروسية من الديانة الوثنية في القرن العاشر وبالتحديد عام (٩٨٨-٩٨٩) إلى الديانة المسيحية في عهد القيصر فلاديمير المتوفى عام (١٠١٥م) إذ تعمد في نهر الدنيبر وعمد شعبه، ومرّ الأدب الروسي مثله مثل معظم آداب العالم بمرحلة الأدب الشفوي، ومعظمه كان من الأساطير والملاحم وبذلك فإن القرن العاشر في تاريخ الأمة الروسية يشكل مرحلة هامة إذ أصبحت أمة لا تعبد الأوثان، وعرفت الكتابة وكانت مدينة كييف هي عاصمة البلاد السلافية الروسية، وفيما بعد أصبحت موسكو عاصمة لروسيا.

ومن الأعمال الأدبية الأولى «كلمة عن حملة الأمير إيغور» كتبت هذه الكلمة عام ١١٨٧، أي قبل ثمانمئة عام، وترجمها في موسكو إلى اللغة العربية

خميس النشمي، وصدرت عن دار رادوغا، ومؤلفها مجهول، وبذلك فهي تنتمي إلى الألب الشعبي، وهي تدعو إلى حب الوطن. ويعني حب الوطن التضحية في سبيله، بدأت في نهاية القرن الثاني عشر مرحلة الإقطاع في حياة الشعب الروسي، لقد تقسّمت روسيا إلى إقطاعيات، وأخذت هذه الإقطاعيات تتقاتل فيما بينها، ولا سيما بين بني مونوماخ وبين بني أوليغ. والأمير إيغور شخصية تاريخية حقيقية (١١٥١-١٢٠٢) أي عاش واحداً وخمسين عاماً، وكان إيغور يستعين بالغرباء الوثنيين في حروبه ضد أبناء عمومته.

توحدت القبائل الروسية عام ١١٨٤، وألحقت الهزيمة بالقبائل المجاورة الوثنية، وحررت الأسرى الروس، وكانت أسلحتهم السيوف والدرع والسهام وأحياناً الفؤوس، ولم يشارك الأمير إيغور في هذه المعركة التي انتصر فيها الروس، ولذلك قرر أن يشن حملة ضد الأعداء في العام التالي، فشن حملته عام ١١٨٥ بمساعدة أخيه وابن أخيه وابنه. وتكبد الروس في هذه المعركة هزيمة منكرة ووقع الأمير في الأسر، ولكنه استطاع الهرب.

ومن القيصرية المشهورين القيصر إيفان الرابع المعروف، بإيفان الرهيب الذي عاش ما بين (١٥٣٠-١٥٨٤م) الذي حاول توحيد الإمارات الروسية، وعرفت موسكو في عصره أول مطبعة. والقيصر الثالث الذي أدى دوراً كبيراً في تطوير روسيا وتعزيز موقعها الدولي هو القيصر بطرس الأول الملقب بطرس الكبير (١٦٧٢-١٧٢٥) الذي حكم روسيا بدءاً من عام ١٦٨٩، أجرى إصلاحات كبرى في روسيا، وأسس عاصمة جديدة للبلاد هي بطرسبورج وانتصر عام ١٧٠٨ على السويد في معركة بولتافا وبني أسطولاً من السفن وأوفد الطلاب إلى الغرب، وبني الكثير من المعامل، كما شهدت روسيا تطوراً ملحوظاً في عهد الإمبراطورة يكاتيرينا الثانية (١٧٢٩-١٧٩٦) والتي حكمت روسيا أربعة وثلاثين

علماء بدءاً من عام ١٧٦٢ بعد أن تلمزت على زوجها للقصور بطرس الثالث (١٧٢٨-١٧٢٢) وفتنهم وهو حفيد بطرس الأول، واستطاعت قمع التمرد القلاحي الذي نشب في روسيا ما بين عامي ١٧٧٣-١٧٧٥ بقيادة بوغدانوف (١٧٤٤-١٧٧٥) وفتنهم التمرد بإعدام المتمردين وعلقتشوف وأقامت بكتوريا لاثنية عائلات مع قادة الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩ وحاولت تطوير العلوم وعلمت ختمت لروسيا علماً بأنها بالأصل لميرة لمائية.

زدهر الأدب الروسي في القرن الثامن عشر وكان من أوائل شعراء هذا القرن بروكوبوفيتش (١٦٨١-١٧٣٦) وكان من مستشاري القيصر بطرس الكبير (١٦٧٢-١٧٢٥) وكان الشاعر كاتيمير (١٧٠٨-١٧٤٤) من أهم شعراء القرن المذكور، تصفت أشعاره بالنقد اللاذع، عمل سفيراً لبلاده في باريس، ألف ديواناً بعنوان «الأهالي» صدر باللغة الروسية بعد وفاته عام ١٧٦٢، وكما نلاحظ أن كاتيمير لم يعش حياة طويلة، وصدر ديوانه المذكور باللغة الفرنسية قبل أن يصدر باللغة الروسية. وكان فاسيلي تزينيا كوفسكي (١٧٠٣-١٧٦٩) وهو ابن رجل دين، تلقى تعليمه في موسكو، ثم في هولande وفرنسا في جامعة السوربون التي كانت آنذاك من أفضل الجامعات الأوروبية، عاد إلى بطرسبورج عام ١٧٣٠ وبدأ يعمل مترجماً منذ عام ١٧٣٢ وحصل على درجة أستاذ في الآداب وهي درجة علمية رفيعة.

ومن بين علماء القرن الثامن عشر ميخائيل لومونوسوف (١٧١١-١٧٦٥) وهو ابن فلاح من محافظة أرخانغلس، التي تقع شمال روسيا وكان متعدد المواهب، عمل في ميدانين الفلك والفيزياء، والكيمياء ونظم الأناشيد وتحمل جامعة موسكو الحكومية اسمه، أي اسمها جامعة لومونوسوف.

وكان من بين شعراء القرن الثامن عشر ألكسندر سومااروكوف (١٧١٧-١٧٧٧) الذي يعد من مؤسسي المدرسة الكلاسيكية الروسية، ونظم الأناشيد وكتب المسرحيات، ولا بأس من الإشارة إلى ميخائيل خيراسكوف (١٧٣٢-١٨٠٧)، الذي نظم الأناشيد وكتب المسرحيات، وعمل أميناً لجامعة موسكو التي تأسست عام ١٧٥٥، وهناك أسماء كثيرة وهامة في هذا القرن، لن أذكرها ولكنني أكتفي بالإشارة إلى المسرحي فونفيرين (١٧٤٥-١٧٩٢)، الذي درس في جامعة موسكو وعمل في وزارة الخارجية مترجماً، وكما نلاحظ أن الأدب الروسي، ازدهر في هذا القرن وساعد على ازدهاره افتتاح الجامعات مثل جامعتي بطرسبورج وموسكو، وإحداث المجالات ودور النشر، وانتشار التعليم إلى حد ما، وكان الأدب في معظمه شعراً ومسرحيات، أما المدرسة الأدبية التي كانت سائدة آنذاك فهي المدرسة الكلاسيكية، واتحد معظم الأدباء من أسر غنية، لأن التعليم لم يكن في متناول أبناء الفلاحين إلا في حالات نادرة، عندما يظهر نابغة يستطيع تجاوز الصعوبات والعقبات كلها.

مكسيم غوركي

(١٨٦٨-١٩٣٦)

١ - مقدمة:

قال غوركي: «أعظم درجات السعادة أن تشعر أن الناس بحاجة إليك، وأنك قريب منهم». وقال أيضاً: «إذا لم أدافع عن نفسي، فمن الذي سدافع عني! ولكن إذا كنت أعيش فقط من أجل نفسي، فما معنى وجودي!».

ولد في ١٦ آذار في مدينة نيجني نوفوغراد، والتي أصبح اسمها غوركي، أمضى مكسيم غوركي طفولته في بيت جده من جهة أمه، وذلك بسبب وفاة والده المبكرة، إذ توفي والده وهو في الرابعة من عمره، وكان جده قاسياً معه، على عكس جدته من جهة أمه، التي كانت تعامله برحمة، أمّا جده فكان يجلد أحياناً، وكانت والدته قد حملت به دون زواج شرعي، وتزوجت بعد ذلك. وتوفيت والدته وهو في العاشرة من عمره، وحاول مكسيم غوركي، في طفولته القيام بأعمال مختلفة ليكسب منها لقمة عيشه، حاول الانتحار في سن التاسعة عشرة، ولكن الرصاص أصابت الرئة وأخطأت القلب، وكان منذ طفولته مولعاً بالقراءة. وصف غوركي معاناته في طفولته في سيرته الذاتية المؤلفة من ثلاثة أجزاء «الطفولة» (١٩١٣-١٩١٤)،

والجزء الثاني بعنوان «بين الناس» (١٩١٥-١٩١٦)، والجزء الثالث بعنوان «جامعاتي» (١٩٢٢). وكان قد كتب في بداية حياته الإبداعية قصة بعنوان «العجوز إيزرغيل» (١٨٩٤). وهي تتحدث عن معنى الحياة الإنسانية. وكتب بعد مرور عام على قصة «العجوز إيزرغيل» «نشيد عن الصقر» (١٨٩٥).

لعل مكسيم غوركي من الأدباء الذين وضعوا حجر الأساس في بناء المدرسة الواقعية الاشتراكية، فكانت قصيدته «الإنسان»، التي صدرت عام ١٩٠٣ اللبنة الأولى في هذا البناء، نادت المدرسة الواقعية الاشتراكية بالجمال الروحي للإنسان الحر، وبعظمة إمكانياته العقلية، وبمسيرته الدائمة التي لا تعرف التوقف إلى الأمام وإلى الأعلى، إلى قمم الإبداع والوعي.

أسس مكسيم غوركي الأدب الذي يهدف إلى تصوير الحياة في حركتها الثورية، وآمن إيماناً راسخاً بأن الثورة الاشتراكية تحول العالم إلى ملكوت للإنسان وأخذت الملايين تقرأ مؤلفاته التي تتغنى بالثورة الاشتراكية القادرة، وعبر عن معاناة الشعب في روسيا وعن آمال الكادحين. ولقد عبر مكسيم غوركي في مؤلفاته الأولى عن إيمانه الراسخ في إمكانيات الإنسان الكبيرة، وعن نزعته الإنسانية.

فعالج في التسعينيات من القرن الماضي موضوع الإنسان المبدع الذي يزين الأرض بإبداعه، ويتعاطف غوركي مع تطلعات الإنسان المبدع إلى خلق المعجزات على الأرض. عكس غوركي في مؤلفاته الرومانسية استنهاض الشعور بالكرامة الذاتية، الذي تميزت به تلك المرحلة، وتعطش الإنسان إلى النضال البطولي والحرية.

ظهرت النزعة الواقعية في المرحلة الأولى من إبداع غوركي، فظهرت الصور الفنية الواقعية مع الصور الفنية الرومانسية، فألى جانب «الصقر»

و«دانكو»، و«العجوز ايزرغيل» ظهرت شخصيات فنية أخرى مثل غريغوري أرلوف، وكونا فولوف، ونيكولاي غفوزدوف وأبطال رواية «الأصدقاء الثلاثة» التي صدرت عام ١٩٠١، لقد عبّرت هذه الشخصيات عن البحث الروحي للإنسان الكادح وعن ثورته على التمييز الاجتماعي، ويتعرف القارئ على شخصيات تعشق الحرية وتبحث عن الحقيقة وتصور أعمال غوركي الأولى الإنسان الكادح الفقير الذي جاء من الأوساط الشعبية ويشق طريقه في الحياة، ورأى غوركي أنّ إحدى مهام الأدب تتلخص ليس فقط في نقد الواقع المظلم، وإنما في تقديم تحليل لهذا الواقع.

نرى في روايتي «فوما غوردييف» ١٨٩٩، و«الأصدقاء الثلاثة» (١٩٠١-١٩٠٠) مشاهد من حياة الأبطال وصوراً لحياتهم التي تعكس هذه الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. لقد ثار في هاتين الروايتين فوما غوردييف، وإيليا لونيف ضد النظام الرأسمالي، وكذلك يعبر العامل الميكانيكي واسمه نيل في مسرحية «البرجوازيون الصغار» التي صدرت عام ١٩٠١ عن الفكر الثوري.

يصور غوركي الظروف التاريخية التي أدت إلى ظهور الطبقة العاملة، ويعبر في مسرحيته «البرجوازيون الصغار» ١٩٠١ و«الأعداء» التي صدرت عام ١٩٠٦ وفي رواية «الأم» التي صدرت عام ١٩٠٦، وقصته «الصيف» عن كراهية الشعب للبرجوازية، ويركز الكاتب اهتمامه على التغيرات الخفية التي بدأت تظهر، والتي أيقظت وعي ملايين الجماهير، والتي رسمت العلاقات الإنسانية الجديدة، واستطاع الأديب الكبير رؤية صفات إنسانية معينة جعلته يثق بقدرة الإنسان على البعث الروحي.

ارتكز غوركي على إنجازات الأدب الكلاسيكي الذي يصور النصرات النمطية ويفسرها تفسيراً عقلياً، ويضعها ضمن ظروف نمطية، ويفضح الكاتب النظام الاجتماعي القائم على القهر والاضطهاد والاستغلال.

٢ - رواية «الأم» (١٩٠٧):

أصدر غوركي روايته الشهيرة «الأم» بعد قيام الثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥، ولقد صدرت هذه الرواية بعد مرور أربعة عشر عاماً على صدور قصة غوركي الأولى «ماكار تشودرا» التي صدرت عام ١٨٩٢، أي إن غوركي خلال هذه الفترة استطاع صقل موهبته الأدبية، يتابع غوركي في هذه الرواية تصوير الناس الفقراء البسطاء الكادحين، فلقد كان موضوع الفقراء والبؤساء أحد المواضيع الأساسية في الأدب الروسي وبدؤه الشاعر كارامزين (١٧٦٦-١٨٢٦)، الذي أصدر عام ١٧٩٢ قصة بعنوان «ليزا الفقيرة» وتابع هذا الموضوع بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) الذي اصدار قصة «مدير المحطة» ضمن مجموعة قصص بيلكين عام ١٨٣١ وكتب غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) بعده قصة، «المعطف» عام ١٨٤١ وتابع هذا الموضوع دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١) فكانت روايته الأولى بعنوان «الفقراء» ١٨٤٦، وكتب رواية أخرى بعنوان «المذلون والمهانون» ١٨٦٢ وكذلك اهتم بهذا الموضوع كثيراً تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠)، ولاسيما في حكاياته الشعبية، ولكن طريقة تصوير غوركي للفقراء والكادحين تختلف اختلافاً جدياً عن طريقة سابقه، لدرجة أننا لا نجد تشابهاً فإذا كان الأدباء المذكورون يحاولون إثارة الشفقة والرحمة على الفقير، فإن غوركي يصور هؤلاء العمال الكادحين، بشكل يبعث في نفوس القراء الاحترام، فهم قوة لا تحتاج إلى رحمة الدولة، لأن الدولة هي التي تحتاج إلى تعبهم، فإن عملوا سارت مرافق الدولة ومؤسساتها ومعاملها على ما يرام، وإن أضربوا عن العمل تعطل كل شيء، هم قوة تخافها الدولة وتخشى قيام تنظيم بين صفوفها، وغوركي عليم بهذه الطبقة ليس لأنه قرأ واطلع على الآداب العالمية وعلى الفكر الماركسي فحسب، وإنما لأنه هو نفسه فرد من أفراد هذه الطبقة فلقد عمل حملاً، وفلاحاً واجيراً وساحباً للمراكب، ومساعد خباز في قرن من

أفران مدينة كازان، وكان القرن لا يختلف كثيراً عن زنزانته، وصور في مؤلفاته الأولى الحفاة والمشردين والغجر. وجاءت رواية «الأم» تتويجاً لحركة تطور الأدب الروسي بوجه عام، ولأدب غوركي بوجه خاص، ويرى بعض النقاد أنها العمل الأدبي الأول في تاريخ المدرسة الواقعية الاشتراكية، وإن كانت هناك أعمال أخرى، ولكن رواية «الأم»، كتبت بأسلوب جديد، وصورت الحركة العمالية، وساعدت غوركي في إبداع هذه الرواية ثورة عام ١٩٠٥، وهي ثورة عمالية وفلاحية، إلا أنها قفعت.

وكان غوركي في أثناء كتابته للرواية المذكورة أحد نشطاء الحركة البروليتارية، فكلف عام ١٩٠٦ بالسفر إلى أمريكا لجمع التبرعات لصالح العمل الثوري في روسيا، وأراد لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) أن يصبح غوركي أديب الحركة العمالية، واستطاع غوركي في روايته المذكورة فضح النظام القائم على القهر والاضطهاد والاستغلال، فقدم لنا مأساة العامل ميخائيل فلا سوف، الذي كان يتعاطى شرب الخمر لينسى آلام حياته ويتابع ابنه بافل فلاسوف العمل، ويعيش في البداية، بالطريقة ذاتها التي كان يعيش بها والده، وفيما بعد يعتنق الفكر الثوري ويغير حياته، وجعل غوركي الأم البسيطة الخائفة كل إنسان، كل شيء بطلاً لروايته، إذ تتطور شخصيتها من زوجة وأم إلى أم مناضلة بعد موت زوجها، وترمز الأم إلى الوطن بكامله الذي ينتقل من مرحلة الخوف والتردد إلى مرحلة الثورة.

أخذت الأم وهي أمية تعيش من أجل خدمة ابنها بعد وفاة زوجها ميخائيل فلاسوف، انضم ابنها إلى مجموعة اشتراكية ثورية، وأخذ يقرأ الكتب الممنوعة «أنا أقرأ كتباً ممنوعة لأنها تقول الحقيقة عن حياة العمال...»^(١) وأخذت المجموعة الثورية الاشتراكية تجتمع في بيته، كانت ناتاشا واحدة منهم، وهي فتاة من أسرة غنية إلا أن والدها لا يقدم لها يد المساعدة لاعتناقها الأفكار الثورية، ولديها أخ وأخت متزوجة.

وبدأت تنتشر الأخبار عن عقد اجتماعات في بيت بافل فلاسوف، وأخذ الناس يتحدثون عن المنشورات التي توزع وتنتقد إدارة المصنع وتحدث عن إضرابات العمال في العاصمة بطرسبورج، فألقى رجال الشرطة القبض على أعضاء التنظيم الثوري، وفكشوا مجموعة من البيوت منها بيت بافل فلاسوف الذي يبلغ عمره عشرين عاماً، ويؤمن بالعلم وبقدرة العقل على الفهم والتحليل.

يوجد قرب المصنع الذي يعمل فيه بافل فلاسوف مستنقع، لا تأتي منه إلا المصائب، والأوساخ والبعض، ولذلك قرر مدير المصنع تخفيفه ولكن على نفقة العمال، فقرر حسم كوبيك من كل روبل يتقاضاه العمال، أي حسم واحد بالمئة من أجورهم، فحرض بافل العمال على الإضراب لأنه في الماضي حسمت الإدارة من أجور العمال مبلغاً من النقود من أجل بناء حمام للعمال ولكن الإدارة أخذت النقود ولم تبني حماماً، وهكذا في هذه المرة، قد يحسمون النقود ولا يجففون المستنقع، ولكن العمال خافوا التسريح وعادوا إلى عملهم، وفشل بافل فلاسوف في تحريضهم على الإضراب.

ورأى صديقه ريبن الذي يبلغ الأربعين من عمره أن بافل فشل لأنه خاطب عقول العمال ولم يخاطب قلوبهم، وجاء رجال الشرطة مساءً واعتقلوه لتحريضه العمال على الإضراب، واعتقلوا تسعة وأربعين عاملاً.

أصبحت الأم تبيع الفطائر والشوربة في المصنع وتأخذ معها المناشير الثورية وذلك لكي يفهم رجال الشرطة أن ابنها بريء بدليل أن المناشير ما زالت توزع. وطلبت السماح لها بزيارة ابنها في السجن إلا أن طلبها رفض في البداية وسمح لها بزيارة ابنها بعد مرور سبعة أسابيع على توقيفه، وحديثه عن عملها وعن المناشير التي عادت للظهور على الرغم من وجود شرطي في الممر الذي يفصل بينها وبين ابنها بافل الذي يناضل من أجل مصالح العمال وضد مصالح الرأسماليين، وكان يوزع المناشير التي تخدم غرضه، ولكن من الذي يكتب المناشير؟ هذا السؤال طرحه على نفسه بافل

وكان يخشى أن يكون بعض الأغنياء يكتبونها ويصدرونها لأن العمال عاجزون عن دفع تكاليفها، أياكون هو وزملاؤه أداة بيد هؤلاء؟ وبدأت مناشير جديدة تظهر بمناسبة عيد العمال في الأول من أيار تدعو لتغيير النظام الاجتماعي القائم، ولا سيما أن أسعار المواد الغذائية الضرورية مثل الخبز أخذت في الارتفاع. وأخلي سبيل بافل فيما بعد، الذي قاد مظاهرة عمالية بمناسبة عيد الأول من أيار، عيد العمال، فحمل الراية الحمراء، راية العدالة والحرية وهتف بأعلى صوته عاش الشعب العامل، وعاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي.

وانتهت المظاهرة باعتقال بافل فلاسوف وبعض رفاقه ولقد شاركت الأم بالمظاهرة وكانت تعتر بابنها بافل، وبذلك ينتهي القسم الأول من رواية «الأم» التي تتألف من قسمين.

تترك الأم في القسم الثاني من الرواية بيتها بعد أن فتشه رجال الشرطة، واتفقت مع أحد الرفاق على توزيع المنشورات في القرى على الفلاحين، الذين يعانون الفقر والعوز، وأخذت الأم تتكرر في ثياب راهبة أحياناً أو بائعة أحياناً أخرى وتجوب مقاطعات روسيا، وتجري محاكمة بافل ورفاقه الذين لم يعترفوا بأي ذنب فهم لم يقتلوا أحداً، ولم يسرقوا أي شيء، ولكنهم عارضوا شكلاً من أشكال الحياة، يقود الناس إلى السرقة والقتل، وعدوا المحكمة ظالمة.

أمّا موقف الروائي مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦) فهو متعاطف مع العمال ويتضح من خلال الرواية بكاملها ولاسيما في أثناء وصفه للإضراب الأول بسبب حسم قسم من أجور العمال لتغطية نفقات تجفيف المستنقع، وفي أثناء مظاهرة العمال بمناسبة عيد العمال واعتقال بعضهم وفي أثناء وصف المحاكمة التي جرت للموقوفين، إذ كان كلام المدعي العام فارغاً وكذلك كان كلام محامي الدفاع، وتكلم بافل وقال إنه لا ينبغي أن من واجبه تحرير الشعب

من عبودية النظام الملكي، وتابع بافل أنه اشتراكي، يناضل ضد الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، لأن المجتمع الذي ينظر إلى الفرد على أنه وسيلة للإثراء، هو مجتمع قائم على أسس غير إنسانية وأن السلطات يجب أن تكون بيد الشعب، وستحقق الاشتراكية لأنها نظام يقوم على أسس إنسانية وتنتهي الرواية بالحكم على بافل ورفاقه بالنفي، واعتقال الأم في أثناء توزيعها للمناشير التي تقول الحقيقة عن حياة الشعب الكادح.

ترمز الأم إلى الوطن بكامله، إنها الوطن الأم فهو في البداية لا يتفهم الثورة، وبعد ذلك يتعاطف معها، وأخيراً يقوم بها، يكثر غوركي من استخدام كلمة الأم، فهي ليست أمّاً لبافل وحده وإنما كان الآخرون يسمونها الأم، ولعل غوركي تعتمد ذلك، إنها أم الجميع، إنها الوطن الأم الذي يقف مع أبنائه ويتفهم الثوار ويتبنى قضاياهم، يتأثر لآلامهم ويفرح لفرحهم.

تقوم في الرواية وحدة عضوية بين الجانبين الفكري والفني فلا يطغى أحدهما على الآخر، فعلى الرغم من أن غوركي يبسط على صفحات الرواية الأفكار التي ناضل من أجلها الثوار، ويسرد كلماتهم ودفاعهم عن مواقفهم، ويتعاطف المؤلف مع هذه الأفكار إلا أن هذه الميزة لا تتحقق على حساب المستوى الفني. فلا يتحسس القارئ بالابتدال وبمواقف مفتعلة، وبذلك فإنني لا أوافق الآراء التي يشير إليها الدكتور حسام الخطيب في كتابه «جوانب الأدب والنقد في الغرب» والتي تتضمن وجود ثغرات كبيرة ولا سيما في مجال البناء الفني، ولقد ذكر هذه النقطة في حاشية بحثه عن رواية «الأم»^(٢).

كما إنني لا أوافق الدكتور ماجد علاء الدين في رأيه، إذ يقول «البطل الأساسي في الرواية هو الناصر بافل فلاسوف...»^(٣) لأنني أرى أن الشخصية الأساسية في الرواية هي «الأم»، وغوركي عندما عنون روايته بهذا العنوان كان يعرف أنها البطلة لأنها الوطن الذي يحتضن أبنائه، أمّاً ابنها بافل فهو أحد أبناء هذا الوطن، وإن كان ثائراً على النظام القائم على الظلم والقهر

والاستبداد والاستغلال، ويؤمن بإمكانية وحتمية النصر على النظام البالي، على الرغم من وجود مخبرين بين صفوف الثوار، ولم يقاوم باقل ورفاقه رجال أمن النظام بالسلاح بل قاوموهم بالكلمة والفكر، كانوا قوة بناءة، ولم يمارسوا الهدم والتخريب، وكانوا يشعرون أن كل العمال والفلاحين في العالم معهم، وكل الرأسماليين والإقطاع في العالم كله ضدهم، فالصراع صراع طبقي. شخصيات الرواية تكاد تكون شخصيات واقعية، فلقد جرت أحداث شبيهة بأحداث الرواية في مدينة نيجني نوفوغورد عام ١٩٠١.

تنتمي هذه الرواية إلى المدرسة الواقعية الاشتراكية، لا بل تعد العمل الأدبي الأول الذي ينتمي إلى هذه المدرسة. فكما أشرنا أسس المدرسة المذكورة مكسيم غوركي في روسيا ومنها انتشرت إلى الآداب العالمية الأخرى ولعلها المدرسة الأدبية الأولى التي تأسست في روسيا لأن المدارس الأدبية السابقة وأقصد الكلاسيكية والرومانسية والواقعية النقدية تأسست في الآداب الغربية وانتقلت بعد ذلك إلى الأدب الروسي والآداب الأخرى. هذا في مجال النثر أما في مجال الشعر فلعل الشاعر فلاديمير مايكوفسكي (١٨٩٣-١٩٣٠) يعد مؤسس المدرسة المذكورة في الشعر العالمي. وكتب غوركي عام ١٩٠٨ رواية بعنوان «اعتراف» التي ترجمت إلى اللغة العربية عن اللغة الفرنسية عام ١٩٣٤، وترجمت من اللغة الروسية إلى العربية عام ١٩١٠، ويقدم غوركي في روايته المذكورة بعض تأملاته عن الدين، وذلك على لسان بطل الرواية وهو لقيط وفقير. ويذكرنا العنوان بكتاب الكاتب الفرنسي الشهير جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) وهو كتاب «الاعتراف»، وكذلك بكتاب ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) بعنوان «الاعتراف» (١٨٧٩-١٨٨٠). ويكتب تولستوي في «اعترافه» أنه لم يستطع أن يعرف معنى الحياة في طبقته، لأن حياة طبقته شبيهة بالحياة وليست حياة. فهذه الطبقة قليلة العدد وشاذة، ولذلك توجه تولستوي إلى الشعب الكادح، الذي كان يفهم، أن معنى

الحياة هو تطبيق إرادة الله، لأننا جئنا إلى هذا الكون بآرادته. ولقد خلق الله الإنسان خلقاً يجعله يستطيع أن يخلص نفسه. ويستطيع أن يهلكها، أيّ أن الله ترك للإنسان حق الاختيار. فرسالة الإنسان في هذه الحياة تتلخص بإنقاذ روحه، ولذلك يجب عليه أن يعيش بمخافة الله، أيّ يجب عليه أن يعمل ويصبر ويتواضع ويرحم الآخرين.

تثير الانتباه نهاية «الاعتراف» حيث يتحدث تولستوي عن حلم وجد نفسه على حافة منحدر، فنظر إلى الأسفل وخاف من السقوط. ونظر آنذاك إلى الأعلى ورأى السماء الكبيرة اللامتناهية. وجذبت السماء بعظمتها، وزال الخوف. وأكد تولستوي أنه رأى هذا الحلم .

٣ - وكتب غوركي عام ١٩٢٥ روايته «عمل أرتامونوف» التي يهديها إلى الأديب الفرنسي رومان رولان (١٨٦٦-١٩٤٤) وهو أديب فرنسي كبير، أصدر كتاباً عن ليف تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) وذلك عام ١٩١١، وأيد الثورة الاشتراكية في روسيا. إن الفكرة الرئيسية في الرواية هي انحلال العالم البورجوازي فالرواية تتناول مواضيع تاريخية واجتماعية أكثر مما تتناول موضوع الأسرة. وإن الصراع القائم في الرواية هو صراع بين العمل من جهة وبين رأس المال من جهة أخرى.

وكتب غوركي روايته الخالدة «حياة كليم سامغين» خلال الفترة الممتدة ما بين عامي (١٩٢٥-١٩٣٦)، وعام ١٩٣٦ هو العام الذي توفي فيه الكاتب العظيم. تعد الرواية المذكورة من أهم أعمال غوركي، مع أنها أقل شهرة في العالم وفي روسيا من رواية «الأم» ١٩٠٧. رسم غوركي في هذه الرواية صورة المنقف البورجوازي، وذلك في شخصية كليم سامغين، الذي يخاف الشعب، ويكرهه وينادي بفكرة النخبة التي تقف فوق الشعب. ويصور فيه حياة روسيا منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٧.

وكتب غوركي عام ١٩٢٧ مقالاً عن الشاعر الروسي المعروف سيرغي يسينين (١٨٩٥-١٩٢٥)، أي بعد أن أقدم الشاعر المعروف على الانتحار بعامين، وكتب غوركي في مقاله أنه التقى بيسينين المرة الأولى عام ١٩١٤، أي عندما كان عمر يسينين أقل من تسعة عشر عاماً وتحداً عن الحرب العالمية الأولى، التي كانت قد نشبت وقرأ غوركي فيما بعد قصائد يسينين والتقى غوركي في برلين بالشاعر المذكور الذي كان يتساءل عن مدى أهمية الفن بوجه عام، والشعر بوجه خاص.

وكتب غوركي خلال المدة الممتدة ما بين عام (١٩٢٤-١٩٣٠)، بحثاً مطولاً عن لينين، ويرى غوركي أن الأعداء يعترفون بعظمة لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) ويبدأ بحثه بأن لينين قد مات، ويتحدث غوركي في هذا المقال عن علاقته بقائد الثورة الاشتراكية الأولى في العالم.

وعاش غوركي في إيطاليا في جزيرة كابري سبع سنوات ما بين عام (١٩٠٦-١٩١٣)، وكتب «أساطير عن إيطاليا» (١٩١١-١٩١٣)، كتب غوركي الأجناس الأدبية كلها، فنظم الشعر وكتب القصة القصيرة، وكتب الرواية والمسرحية، ومارس النشاط السياسي. لقد كتب الأديب الفرنسي رومان رولان في آذار عام ١٩١٨ مخاطباً مكسيم غوركي «...إنكم تشبهون البوابة التي ينتقل الناس عبرها من الماضي إلى المستقبل»^(٤).

انتصرت الثورة الاشتراكية في روسيا في أكتوبر عام ١٩١٧، وقام غوركي بنشاط أدبي كبير بعد انتصار الثورة العمالية، فلقد أسست دار نشر معروفة باسم «الأدب العالمي»، وجمعية «الثقافة والحرية»، وقدم خدمات كبيرة للثورة التي قادها لينين إلا أن آراءهما لم تكن متطابقة، إذ كان غوركي يرى أن ضحايا الثورة أكثر بكثير مما يجب أن تكون، وكان لينين يرى أن القسوة ضرورية لنجاح الثورة الاشتراكية الأولى في العالم.

سافر غوركي إلى إيطاليا ثانية عام ١٩٢١ من أجل العلاج، بناء على نصيحة لينين، وعاش هناك اثنتي عشرة سنة، أي لغاية عام ١٩٣٣، وكان يتردد إلى روسيا في الصيف، وبذلك يصبح عدد السنوات التي أمضاها غوركي في إيطاليا تسع عشرة سنة، إذ كان سابقاً قد عاش فيها خلال الفترة الممتدة ما بين عامي (١٩٠٦-١٩١٣).

ويكتب بعض الوقائع من تاريخ الثورة في مقاله المذكور، مثلاً يكتب عن الفلاحين الروس: «أتذكر بقرف الواقعة التالية: عقد عام ١٩١٩ في بطرسبورج مؤتمر للفلاحين الفقراء، ووصل إلى بطرسبورج آلاف الفلاحين من الريف الشمالي، وأقام المئات منهم في قصر القيصر سابقاً المعروف باسم القصر الشتوي، وعندما انتهى المؤتمر، تبين أن هؤلاء القوم استعملوا المزهريات الثمينة، والنادرة الموجودة في القصر لقضاء حاجاتهم في الليل، علماً بأن مرافق القصر كانت سليمة، ولم تكن هناك ضرورة لاستخدام المزهريات، إلا أن الفلاحين أردوا الإساءة إلى هذه القطع الثمينة، ولقد لاحظت هذه الرغبة لدى الجماهير خلال الثورتين الروسيتين، يحبون تدمير كل ما هو رائع»^(٥) ويتحدث غوركي عن محاولة اغتيال لينين عام ١٩١٨ وعن بسلطته. بشكل أدب غوركي صفحة رائعة في تاريخ الأدب العالمي، فلقد عبر غوركي طريقاً مليئاً بالصعوبات فلقد أسهم في إعداد المؤتمر الأول لكتاب الاتحاد السوفييتي، الذي انعقد في موسكو عام ١٩٣٤، وأصبح أول رئيس لاتحاد الكتاب السوفييت. وشارك في إعداد الوثائق الصادرة عن المؤتمر المذكور. أقام غوركي علاقات وثيقة مع أدباء العالم ولقد كتب عنه لينين «غوركي موهبة فنية كبيرة، حمل ويحمل الكثير من الفائدة للحركة البروليتارية العالمية».

ولا بأس في الختام من الإشارة إلى أن اسم غوركي اسم مستعار، واسمه الحقيقي بيشكوف، ولقد كثرت بين الأدباء والمفكرين الروس آنذاك

الأسماء المستعارة، فاسم لينين أيضاً اسم مستعار واسمه الحقيقي أوليانوف. وكذلك اسم ستالين، فهو أيضاً اسم مستعار. وكثرت هذه الظاهرة في الآداب العالمية فالقاص التركي عزيز نيمس (١٩١٥-١٩٥٠) اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً، وكذلك الروائي الأمريكي مارك توين (١٨٣٥-١٩١٠)، وكذلك المسرحي الفرنسي موليير (١٦٢٢-١٦٧٣).

كُتبت عن غوركي الموسوعة العربية الكبرى: «بعد غوركي مؤسساً للأدب السوفييتي، ورائداً للواقعية الاشتراكية، وكان لأعماله تأثير كبير في كثير من الأدباء الذين عاصروه، ليس في روسيا وحدها بل خارج حدودها»^(٦). ويرى بعض النقاد أن غوركي مات مسموماً. ومات غوركي في العام ذاته الذي توفي فيه نيكولاي أوستروفسكي (١٩٠٤-١٩٣٦) الذي ألف رواية «كيف سقينا الفولاذ» ويتحدث فيها عن الحرب الأهلية الروسية التي أعقبت ثورة عام ١٩١٧ الاشتراكية.

الحواشي

- (١) مكسيم غوركي. رواية الأم، المؤلفات المختارة في ستة مجلدات، المجلد الخامس، ترجمة: د. فؤاد أيوب، المحامي سهيل أيوب، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٣ ص ٢٢.
- (٢) د. حسام الخطيب، جوانب من الأدب والنقد في الغرب، الطبعة السادسة، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٧ ص ٢٤٢.
- (٣) د. ماجد علاء الدين. الواقعية في الأدبين السوفييتي والعربي، دمشق، دار الثقافة، ١٩٨٤ ص ٤٦.
- (٤) مراسلات غوركي مع الكتاب الأجانب، موسكو، دار أكاديمية العلوم السوفيتية، ١٩٦٠ ص ٣٣٣، المصدر باللغة الروسية.
- (٥) غوركي، مختارات، لينينغراد ١٩٧٣، ص ٣٩٢-٣٩٣، مقال غوركي عن لينين، المصدر باللغة الروسية.
- (٦) الموسوعة العربية الكبرى، دمشق، رئاسة الجمهورية، هيئة الموسوعة العربية، المجلد ١٤، ٢٠.
- (٧) الأسبوع الأدبي، ٩/١٤ عام ٢٠١٤، العدد ٤٠٨ ص ٦.